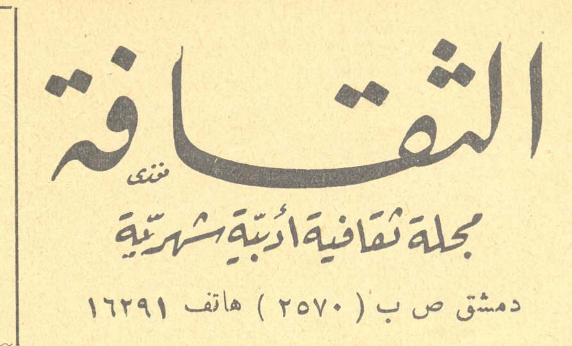
العدد الثامن

كانون ثاني (نوفمبر) ١٩٥٩

السنة الاولى



دمشق ص ب (٢٥٧٠) هاتف ١٦٢٩١

صاحبها ورئيس تحريرها

مدحة عكاش

MADHAT AKKACHE

البطولة

في الادب العربي منذ سقوط

بغداد حتى فجر النهضة الحديثة [١]

حين كان ابن الاثير يكتب تاريخه الكامل يقص فيه سيرة هذه الأمة التي خرجت من الجزيرة تحمل دعوتها ولغتها ورسالتها الى الناس ، وتنشر مثلها الرائعة وقيمتها الكريمة حيث كانت تحل من الارض ، وتخرج الناس من اسار العبوديات الثقيلة وتطلقهم في آفاق الحياة الحرة ، وتنفخ في وجودهم المتداعي روح الوجود الحق الذي يربط الانسان بأسمى ما في الانسان ، بعقله ، ويربط عقله بأبعد آفاقه ، بالله .. وتفجر فيـــه أقوى ما فجرت الانسانية من قوى ، قوة الفكر .. حين كان ابن الأثير يمر بهذا التاريخ ، بأحداثه ووقائعه ، صفحة بعد صفحة ، وسنة بعد سنة ، كان يحرص على أن يكون عرضه وتناوله سليماً نقياً ، يقف من الوقائع والأشخاص والأحداث موقفاً موضوعياً .. وقد يتأثر بهذا العامل أو ذاك ، وقد ينفعل هذا النوع من الانفعال الملائم أو ذاك من الانفعال المعاكس ، ولكنه على كل ذلك كان حريصاً على ان لا يدع لهذا الانفعال أن يكون له انعكاسه فيما يروي أو ينقل .. انه ، بمعنى آخر ، حرص على أن يقف من الأحداث موقفاً حيادياً .. فاذا أنت تقرؤه حين تقرؤه فلا يصدمك فرحه وحزنه ، رضاه أو سخطه .. وما اكثر الاحداث التي مر بها ، والوقائع التي عرضها ، وما أغنى هذه الاحداث والوقائع . منذ نشأت هذه الأمة العربية الجديدة ... ولكن ابن الأثير هذا حين بلغ الحديث عن قصة أعنف غزوة همجية سربلت العالم ، والتهمته كما يلتهم حوت هائج سمكة وداعة جميلة ، ترقص أجنحتها السحرية المذهبة رقصة الحياة السعيدة ، حين بلغ هذا كان مجرد ذكرى هذه الغزوة يثير عنده الهول والفزع . ومن المؤكد أنه احس الجفاف في حلقه ، وأن قلمه ذا الشباة المنطلقة المرهفة التي كانت تنفرج عن الحديث الشهي الطيب رجف في يديه رجفة الاشفاق ان يسطر قصة هذا السيل الهمجي الغاشم الذي أتى في طريقه على كل معالم الحضارة التي صاغتها الحياة العربية من ألق عيون أبنائها ذرة بعد ذرة ، من توهج الابداع وبريق الحدس ، من صوب العقول وحصاد الذهن البشري الذكي حين يجمع الى ثقافته كل الثقافات التي سبقته ، والى تجاربه كل التجارب التي تقدمته ، والى حماس الرغبة قوة الارادة وجلد البحث ودأب العمل وسهر الليل الطويل في سبيل الحرف والرمز والكلمة والفكرة ، وفي سبيل الخط والرقم والمعادلة ، وفي سبيل الصبغ واللون والتركيب .. حتى كان من كل ذلك هذه الحضارة التي انتشلت ماضي الانسانية ، وأنقذت الفكر القديم من وهدة الجهالة التي آل اليها ، ثم أغنته ، ورفدته ، وأضفت عليه واضافت اليه ، وشقت له طريق المستقبل ، الذي مهد لحياتنا اليوم ..

اجل لقد رجف القلم في يد ابن الاثير .. ما ارتضى ان يكون هو الذي يسطر للأجيال ، لكل الاجيال الانسانيه من بعده ، هذه المأساة .. فأغفل الحديث عنها سنة بعد سنة ، ودافعه عاماً بعد عام .. حتى اذا لم يجد متأخراً بدا حديثه عن سنة سبع عشرة وستمائة بهذه الصفحة التي صاغها من دموع عينيه ومن دموع قلبه على السواء .. هذه الصفحة التي كانت كأنما

---

(١) ليس في نطاق هذا البحث الحديث عن شمال افريقية والاندلس فقد افردهما المؤتمر بحيز خاص ، وموضوع .

هي دفقة آهات حرى .. ولو كان لها ، هذه الصفحة ، ان تحيا في وجدان شاعر لصاغ منهـــا روع اناشيد الالم في تاريخ الانسانية منذ كانت .

* * *

تمنيت لو قرأت عليكم هذه الصفحة .. انها تصف كيف خرج التتار كالسيل الهاد يجرف كل ما في طريقه ، فاذا الاشجار أحطاب وخضد ، والبيوت أحجار ، والمدن خرائب .. واذا العاصفة تذرو كل شيء ، واذا هؤلاء المنطلقون كأنهم جن أسود ، قد انشعبوا هنا وهناك كأقدام أخطبوط مسلطة في كل وجه ، فأتوا على المدن كما يأتي سرب من جراد على جنة أرض ، فيجعلها جذوعاً يابسة ، لا ثمر ولا شجر .. والى ذلك آل أمر كاشغر وسمرقند ، وتعالت ألسنة النار في بخارى ، وقودها كل ثمرات الفكر وقطع الخارجون خراسان تخريبا وقتلا ونهبا ، ثم تجاوزوها الى الري وهمذان ، والجبل وما فيه من البلاد الى حد العراق . أما أذربيجان فقد قتل أكثر أهلها لم ينجح الا الشريد النادر .. ثم قصدوا القفجاق « القفقاس » فقتلوا كل من وقف لهم وهرب الباقون الى الفياض ورؤوس الجبال ، وفارقوا بلادهم واستولى عليها هؤلاء التتر .. ومضت طائفة أخرى منهم الى غزنة وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها ما فعلوا في غيرها ، وانطلقوا في كل صوب لا يمنعهم مانع . والتقى على هذا الوطن الكبير خطر هؤلاء التتار من نحو ، وخطر الصليبيين الذين قصدوا دمياط من نحو آخر ، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم كما يقول ابن الأثير . أما الذي « سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول والفتنة قائمة على ساق » ..

تلك كانت الصورة الكالحة لوطننا الكبير في هذه الفترة : خطر خارجي محدق ، وأطراف مهددة ، وفتن داخلية مضطرمة .. لقد تقدم التتر ، واستقام لهم هذا الامر لعدم وجود المانع على حد تعبير ابن الاثير .. اجل ، لم يعد هناك هذا المانع الذي يقف لهذه القوى الخبيثة ، المهاجمة ، المفاجئة . لم يعد هنالك مانع مادي ، فقد تبددت القوى وتكسرت الوحدة وأخذت تتآكل أطراف هذه الدولة الكبرى مع الاحداث حتى لتوشك هذه الأحداث أن تنال القلب .. بل انها نالت فعلا بغداد مع التتر ، وأطراف الشام وسواحله مع الصليبيين ، وضاقت على هذا القارب العربي الذي كانت الآفاق البعيدة أدنى حدوده ، أرضه من حوله ، واختلف فيه الملاحون وعزفت الامواج على المجاديف نشيد الموت .. لولا أن الشعلة التي انطلقت من الجزيرة كانت لا تزال تتألق كالشموفي في بعض النفوس الصافية ، تغالب ظلمة الليل وتنهض وحدها لجيوشه السود تكشفها وتفضحها ، وتحمل خفقاتها معنى القلب الذي لا يزال ينبض بالحياة . ولولا أن القارب لم يعدم بعض ملاحيه كنور الدين والظاهر كانوا ينذرون أرواحهم لحمايته ، ويقف الواحد منهم وراء الآخر في سلسلة الاحداث أروع ذكياً كجبل شامخ يستعلي على كل ما في الوادي والسفح ، يعري ذراعيه وقد بدت عروقها ، يحرز السفينة ويسير معها وسط الضباب والموج ، من مسرب الى مسرب ، حتى ينتهي بها الى الامان .

. . .

في هذه الفترة وفي فترات حولها ، قبلها وبعدها ، **كانت البطوله التي تكشفت عنها الروح العربية في ذلك الحين تعني شيئاً واحداً .. تعني المقاومة والتكبر على الأحداث** . أريد ان اقول تعني نشأة المقاومة وتكونها وتجمعها حتى تقف للاعصار الآتي من الشرق والاتي من الغرب على السواء : للاعصار التتاري وللاعصار الصليبي ، وبدت هذه البطولة في دفع الصليبيين الغربيين مرة بعد مرة ، حتى خرجوا عن مصر والشام ، وارتدت القدس مدينة من مدن العرب وحرما مقدسا من حرمات الاسلام . وانكشف الدخلاء عن الساحل عن الداخل .. وتبدت كذلك في هزيمة التتار ، والوقوف بدهم هذا الطاغي في معركة عين جالوت حين رد الملك الظاهر جيشهم العاتي واذاقهم طعم الهزيمة بعد ان كانوا لا يعرفون الا حلاوة الانتصار . وكانت بطولة جيش الظاهر ، بطولة عن جالوت لا تحمل معناها المادي ، فلعل معناها المادي هذا ان يكون أضعف ما فيها .. وانما تحمل معناها البعيد في صيانة الحضارة وحماية المدنية وثمرات الفكر ان تكون طعمة للنار يوقدها رعاة الاغنام والابقار والخيل .

والمقاومة : روح المقاومه وخلق المقاومة ، وايقاظ معاني المقاومة ، والحيلولة بين الناس وبين أن يغرقهم الاستسلام ويتملكهم اليأس ، واثارة كل ما في نفوسهم من أمجاد وقيم ، وشدهم الى مثل أعلى هدفه أن يدفع الدخيل

الخادع وأن يمكن للأصيل الامين .. هذا كله أبرز معاني البطولة في جزء كبير من هذه الفترة التي حدثتكم عنها .. انها لم تكن بطولة مادية وانما كانت بطولة رأي و كفاح من دون هذا الرأي . وبطولة تجرد وجهاد في سبيل هذا التجرد .

ولقد تعودنا ان نجد معاني هذه البطولات أول مانجدها في عصر من العصور عند شعرائنا . لان شعراءنا كانوا بحكم انهم من ابناء هذه الامة من نحو وبحكم صلاتهم بالسلطان من نحو آخر – كانوا اقدر الناس على ان يعبروا عن هذه المعاني وان يحسنوا صياغتها .. كان فيها التعبير عن انفسهم وكان فيها كذلك تحميل اصحاب السلطان مسؤوليتها .. وضعهم امام مسؤولية التاريخ والزمان .. ومن هنا كان شعر المديح جديراً ان ينظر اليه في تقويمنا للتراث الشعري وفي دراستنا الادبية والاجتماعية نظرة اخرى .. انه ليس دائماً خور استجداء وذلة استعطاء .. اننا نظلم روح المتنبي الدافقة وشموخ ابي تمام المستعلي وتمكينها للقيم الاصيله في النفس العربية حين نعدشعرهما في المديح مديحاً فحسب .. بل لعل المديح ان يكون ثوبه الظاهر ، قالبه أو شكله الخارجي او مناسبته العارضه . ان الروح ، روح تقديس الاستشهاد عن نصر او هزيمة هي التي أملت على ابي تمام رائيته في رثاء محمد بن حميد الطوسي ..وهدير الروح العربية العميق ، كهدير المياه الجوفية تنبجس عن نبع متدفق ، هي التي كانت تدفع المتنبي ان يقول مايقول مؤمنا بسيف الدولة او كافراً بكافور .. ومن ذا الذي يزعم ان العطاء وحده هو الذي كان يدفع القيسراني الى ان يقول مهنئا وزير نور الدين « جمال الدين ابي جعفر الجواد » بفتوح مدينة الرها سنة تسع وثلاثين وخمسمائة :

اما آن ان يزهق الباطل ... وان ينجز العـــدة الماطل
الى كم يغب ملوك الضلا ... ل سيف بأعناقهـــا كافل
فلا تحفلن بصول الذئاب ... وقـــد زأر الاسد البازل
هو السيف الا تكن حاملا ... لبزته بزك الخـــامـــل

الى ان يقول يستعجل فتح القدس واستخلاص السواحل.

فان يك فتح الرها لجة ... فساحلها القدس والساحل

وهل كان العطاء وحده هو الذي يدفع القيسراني ان يقول مهنئا نور الدين باستقرار امر دمشق له نافضا بين يديه احلام الناس واما نيهم :

كأني بهذا العزم لا فل حده ... واقصاه بالاقصى وقدقضي الامر
وقداصبح البيت المقدس طاهراً ... وليس سوى جاري الدماءله طهر

اليس هذا الذي كان يقوله هؤلاء الشعراء في هذا العصر المتأخر او ذاك المتقدم انما يعبرون به عن روح الجماعة المنطلقة عن آمالها التي تتحرق – اعماقها اندفاعاً للوصول اليهـا ؟.. الم يكن هؤلاء الشعراء في هذا لهاة الناس .. لسانهم ..؟.. ليكن ما يكون من امر هذا القالب الخارجي الذي صيغ فيه هذا الشعر .. ليكن المديح قالبه ، وطلب العطاء بعض ما فيه ، فليس ذلك شيئاً امام روح الامة التي كان يعبر عنها الشعراء بهذا الشعر .. وقد آن لنا بعد ان نسمي الاشياء بأسمائهـــا البعيدة وان نطرح عنها هذه الاثواب الزائفة التي كسيت بها آن لنا ان نقول ان ما نسميه هجاء او مديحاً ليس الا طرفاً عارضاً في القصيدة ، وان القصيدة من قبل ومن بعد ليست حين تكون في موضعها الحق من الصدق النفسي والتجاوب مع مطامح الجماعة والتعبير عن مطامعها والتمثيل لتطلعها ليست الا روح هذه الجماعة وتصوير لمثلها الاعلى وتعبيراً عنه .

* * *

واذا كان هذا حقاً في اكثر فترات الازدهار في حياتنا الادبية ، تدل عليه القصائد ، وتنبىء عنـه الاشعار . فان فترات الانحطاط بعد سقوط بغداد تؤيد ذلك تأييداً سلبياً .. ذلك اننا ننظر في الشعر الذي قيل في هذه الفترة ، في مرحلتيها المتميزتين : مرحلة التتار ومرحلة العثمانيين ، فلا نجد شعراً ذا بال ، بله ان نجد القيم البطولية التي يعبر عنها الشعر او يبشر بها ، نجد قصائد ومجاميع ، وتطالعنا مختارات ودواوين ، ولكننا لانجد الا في النادر الشعر الذي يعبر عن روح الجماعة ويمثل تطلعها . اننا نجد موسيقى الشعر ووزنه ولكننا لانحس حرارته ، ولا يتوهج في اعيننا القه .. كل مظاهر الشكل نلمحها ، ولكن ابرز سمات الروح تخفي علينا .. فما الذي حجب عنا اصالة الانتاج الفني شعراً كان او نثراً ؟.. ما الذي رد هذه الزهرات الندية زهوراً اصطناعية جافة جامدة لها شكل الزهر ، ولكن ليس فيها النسخ الروحي الذي فيه ؟! وبالتالي ما الذي حجب القيم الكريمة في اعماق الروح العربية في مجالها الشعري ؟..

ان تفسير ذلك لا يبدو عسيراً . ان الروح العربية – كائنا من كان اولئك الذين مثلوها خلال هذه الفترات قبل

سقوط بغداد فجعلت كل الذي استطاعت فعله . صدعت بالدعوة ، وحملت الرسالة وطلعت على الناس بعد جاهليتها بروح انسانية عريضة تجعل من الانسان المؤمن مركز الحياة في الارض ، وتسخر له كل شيء في الآفاق . ولكن هـذه الروح العربية بالذي انتدبت له من امر هذه الحضارة الانسانية العريضة التي ارادت ان تبنيها ، لقيت كل العراقيل ، فجاهدت وعملت ، وعلمت وعلمت ، حتى اذا ادركها بعض الاعياء اثراً لهذه السلسلة من الارواح الخبيثة التي وقفت في طريقها روح العصبية فيها ، وروح الثأر عند الذين اججوا الفارسيه ، وروح التسلط عند الذين بعثوا التركية ، وروح الخراب مع هذا الاجتياح المغولي ، وروح التعصب والحقد في هذا الخطر الوافد من الغرب . الروح العربية السمحة حين لقيت كل هذا وقفت عند الذي اشاعته واشعته ، ثم تركت لهذا الخليط المضطرب ان يفعل ما يشاء ، فاذا العصبية المنحرفة تفسد المعنى القومي السليم ، واذا الفارسية تفسد الروح الاسلامية التي تقوم على البساطة والمساواة ، واذا التركيـة تفسد معنى الدولة والاستقرار ، ومع ذلك فقد ظلت الروح العربية تغالب ذلك كله بحضارتها وثقافتها ووسائلها ولغتها ، غير ان بدائية ووحشية المغول وعصبية الصليبين حاولت تستنزف في هذه الفترة الزمنية التي نتحدث عنها ما بقي في روحنا الاصلية من قوة .. فاذا نحن نزاح عن مكان الريادة ، ولا يكون للعروبة الصافية بمعناها الذي خرجت به من الجزيرة موضع القيادة وانما تتابع على القيادة هذه القوى المختلفة الهرمة والشابة ، ولكنها ـ في جملتها ـ كانت لا تملك من الاصالة وصفاء الروح وتعمق المثل الاعلى القدر الذي كان للأجيال الأولى ، ولذلك لا يكون لهـا في دفع هذا الركب البشري في طريق الحضارة الصاعد الا دور ثانوي ، وان توفر لبعضها متى القوة ما فرض به وجوده ، وشيد ملكه ، واعطى الشرق معنى الهيبة في نظر عداته الغربيين .

* * *

ومع خمود الروح الاصيلة خمد الشعر منذ سقطت بغداد . كان صوت صفي الدين الحلي آخر الاصوات التي نفخت فيهـا هذه الروح مزاميرها ، وقال صفي الدين شعره تتخلل ثناياه نفحات من الروح العربية المنتفضة .. حرّض على المغول وحذر منهم ، وكان ذوي السلطان حوله يفقهون قوله لأنهم كانوا بقية من هذه السيوف العربية التي سكنت اغمادها بعد ، او بقية من السيوف التي طبعت على غرارها السيوف الايوبية ومن اتصل بها متأثراً خطاها .. ولذلك نجد كثيراً من شعر صفي الدين معارضات ، ونجد عنده مثل الفخر الذي قرأناه في العصور الاولى .. ولكننا ندرك بوضوح ، ونحن نقرؤه ، أننا لسنا أمام الشاعر الذي كنا نعرفه ، لسنا أمام حسان أو المتنبي أو أبي تمام ، وان كان يلبس مسوح المتنبي ، ويكتسي أثواب أبي تمام ، ويستعير أوزانها وقوافيها .. ان شعره صورة باهتة للشعر في معناه السليم . ولقد خيل الي وانا أقرؤه كأنما أنا احيا في الكهف الذي ترتسم على جداره ظلال الأشياء .. ولكني لا احيا مع الاشياء ذاتها .. ان صوته يرتفع احياناً كما يرتفع صوت الشعراء ولكنه لا يحمل دفقة قلوبهم ودفء عواطفهم ، وتلك هي التي تهب الاصوات عادة رنينها المتميز .

وفي الوسع أن نعتبر صفي الدين من هذا النحو في المشرق خاتمة الشعر الذي يرنو الى المثل العليا ، وترتسم عليه بعض سمات البطولات العربية .. فأما الذين جاءوا بعده فقد لفتهم نزعـة العزلة التي آثرتها الروح العربية لمكان القيادة .

ومن هنا أيها السادة يعسر علينا العسر كله ان نتلمس معاني البطولة ، أية بطولة ، في الادب في هذا العصر .. وكلما مضينا مبعدين فيه كلما شق علينا الامر . قد نعثر على البيت أو المقطوعة أو الشاعر في لمحة خاطفة من لمحات الاشراق المفاجىء .. ولكننا لا نلمح الثروة الشعرية الكاملة ، ولا الثورة النفسية العميقة ، لان الروح التي كانت تمدها آثرت الانكماش .

وكذلك ترون أيها السادة أننا لن نستطيع ان نلتمس البطولة كما كنا نلتمسها قبل في العصور الاولى ، عصور الدعوة الدعوة والانطلاق والامويين والعباسيين ، كما سنلتمسها بعد في عصور النهضة ـ من الادب أعني من الشعر والنثر .. واننا ان نفعل ذلك فلن نجد شيئا .. سنقرأ كثيرا من الدواوين ، ونعرض عديدا من الشعراء ، وتطالعنا القصيدة بعد القصيدة ولكننا لن نجد في كل القصائد التي نقرؤها والشعراء الذين نتعرف اليهم ، والدواوين التي نعرضها مانحب ان نقع عليه .. لن ينبض شعر هؤلاء الناس نبضة الحياة العميقة ، ولن يتحدث عن مواجد الارواح الذكية القلقة وتطلعاتها واهتماماتها البطولة ..

ان الحرف الذي صبغ به هذا الشعر عربي لم يتنازل عن عروبته في ذلك وان كان افسح للحرف التركي والفارسي مجالا كبيرا . ولكنه حين تمسك بالحرف العربي لم يقبس معه شعلة هذا الحرف ولاوهجه ولا مرتكزه النفسي العميق الذي يقوم عليه .ولا آفاقه البعيدة التي يفتحها . لكأن الحرف العربي في هذا الشعر أصابة شيء من عمى ، فأضحى وقل سدت عليه منافذ الوجود .. ولكأن الشعر الذي صبغ منه جاء كذلك مقفلا مصمتا ليست له المطلات الواسعة وتحتبره تصغي اليه فلا تسمع له وسوسة ولاجلجلة ولاتحس له لذع الوهج أو نشوة الدفء .

وقد قرأت كثيرا من الشعر في هذه الفترة ، وفاء لشرف هذا الموقف ، فكان أكثر ماوجدت الغزل .. كانت كثرته بالغة .. وكان الى جانبه الاحاجي والتهنئة بالاعياد والختان ، والاخوانيات التي لاتتشرب المعاني الانسانية الشاملة ولا تنفتح عليها .. ولم يكن في كل هذا الغزل الذي قراته ، ماجنا - اعني الغزل - او متعففا ، مايصح ان نقف عنده .. وكنت اقرا فأجد ظلالا باهتة من شعر المتقدمين .. بل لعل الذي وجدته لايعدو - اذا استعملنا لغة الغزل - ان يكون اطلالا خربة للغزل الرائع الذي نعرفه في عصورنا الاولى وهو الغزل الذي حاول ان يسبر غور النفس ، وان يتعمق دناها وان وان ينفذ الى سرائرها اذ يتحدث عن سرائر الهوى ومسارب الحب .

بل كان اكثر الذي قراته معادا مكرورا في كثير من التشويه .. وكنت اشعر كأنما امضي في ارض قاحلة ترتع فيها بعض النباتات الشائكة لها اسم النبات ولها شكلة ولكن ليس لها منه خيره الذي ينفع وانما هو شركه الذي يؤذي .

واكثر من هذا ان هذا الغزل الجاف لم يحجب معاني البطولة ولم يستهلك قوى الجماعة الفنية واهتماماتها النفسية فحسب ولم ايكن من سطرته انه غطى اكثر جوانب النفس الانسانية في ذلك وانما كان له الى جانب هذا عمل آخر .. ذلك انه امتص معاني البطولة وافسد شعاراتها - فيما نقول بلغة اليوم - انه استخدم الفاظها ليشوه مفاهيمها ، اوليعطي هذه المفاهيم مضمونا معاكسا يثبته في القلوب والاذهان ، كالذي نلمح اليوم من الاحتماء ببعض المفاهيم والطعن عليها في ان واحد ، الاستتار وراءها وتمزيق أطرافها .. وكان من أثر ذلك ان القنا والرماح والسيوف والنصال وهي بعض مظاهر القوة وأدوات البطولة لاتتبدى في هذا العصر في وصف الجيوش والمعارك وساحات الجهاد قدرما تتبــدى في وصف القدود والعيون والنظرات . وأى - ترد أبعد من هذا : ان لاتقع على السيف ، سواء في واقع الجماعة او في عملها الفني ، حيث يجب ان يكون من أعناق الطغاة او الظلمة ، وانما تقع عليه في هذا الرمز الذي يفسد طبيعته ويفسد طبيعة الغزل في آن واحد !..

وحين كان العربي في مكانه الطبيعي من الحياة السليمة كان يذكر هذه الاشياء في نطاق الغزل ولكنه لايترك لهذا الغزل أن يمسخ حقيقتها ويفسد طبيعتها ولا يتيح له أن يمتصها وان ينسي ضمائر الناس جوهرها الاول .. وانما كان العربي يذكر ذلك فيقرن هذا القرن الرائع النفسي ، العميق ، بين بريق السيوف وبين الثغر حين تكون الرماح تنهل منه .. وتكون مهمة الغزل لا ان يفسد طبيعة البطولات ، وانما يكون من طبيعته أن ينمي هذه البطولات لانه يصقلها ، وان يكون خيال المحبوبة وجمالها هالة جديدة في هالات المعاني الانسانية العميقة تحتاط مثله الاعلى وتساعد على اجتلائه وصقله .. كان العربي الاول يقول ماقال عنتره :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
منى وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيــل السيوف لانها
لمعت كبارق ثغـرك المبتسم

أما الذي كان يقال في هذه الفترة فذلك الذي يقوله شاعر اسمه يوسف المغربي [1] :

جعلوا الشعور على الخصور بنودا
والراح ريقـا والشقيق خدودا
جعلوا الصباح مباسما ثم الظلام
ضفائرا ثم الرمــاح قدودا
والورد خدا والغصون معاطفا
والشمس فرقا والغزالة جيــدا
ورأت غصون البان ان قدودهم
فاقت فأضحت ركعا وسجودا

وكان من الحق ان لا أذكر لكم مثــل هذا المثال حتى

---

(١) ريحانة الالباء ٢٣٥ .

لا افسد عليكم نشوة الابيات الاولى .

ونحن في هذا لا نأخذ على هذا الشعر انصرافه الى الغزل ، فليس ذلك من غرضنا في شيء ، ولا نريد ان نحمل معنى معينا فما ذلك من طبيعتنا في شيء ، ولكننا نريد الى القول ان هذا الغزل فقد صلته بالنفس الانسانية ، فلم يعد هذا الحنين وهذا الشوق في مواكب الروح المتفتحة للجمال او للحق ، اوللخير ، بل انه باعد مابينه وبين هذه الاقانيم .

وما يقال عن الغزل يقال كذلك عن كل الفنون الشعرية الاخرى . اطلال ليس فيها رائحة اصحابها ، وظلال ممسوخة لايرتسم من تموجاتها صورة نافذة ، ولا تدفع ايحاءاتها بالناس الى اعلى المستوى الذي فيه يتمرغون .

وكذلك غابت معاني البطولة ، في العمل الفني ، من وجهين اثنين : أولهما أن واقع الجماعة ذاته لم يكن من الغنى النفسي بحيث يستطيع ان يتمثل أعمالاً فنية قيمة . والآخر ان آمال الجماعة نفسها لم تكن من التفتح ومن الازدهار ، بحيث تشحذ الالهام وتصقل المشاعر فيتولد عنها هذا التوق الى عمل بطولي ، أو هذا الرمز اليه ، أو هذا التبشير به .

* *

هل في هذا الذي أقوله لكم بعض تناقض ؟!.. أخشى أن تتهموني بذلك حين تذكرون أني قلت في مطلع الحديث ان معاني البطولة في هذه الفترة تتمثل في المقاومة ، وتتدى في التأبي .. تحاول ان تتلامح مع كلمة « لا » حيث يجب ان تقال « لا » .. ثم حين تذكرون اني اقول الان ان معاني البطولة قد غابت ، واننا لن نقع عليها في نثر الادب وشعره .

فما تظنون تفسير هذا الذي قد يبدو تناقضاً ؟.. من اين استقينا معاني البطولة التي اشرنا اليها ؟.. اين نقع عليها ان لم نقع عليها في الشعر والنثر ؟

لنخرج ايها السادة من نطاق الادب بمعناه الضيق من حيث هو شعر ونثر ، فقد عجز الشعر والنثر عن ذلك لا شك ، [١] لم يسعفه الواقع ولم تسعفه الاماني ، ولنلتمس بطولة هذه الفترة من تاريخها في الادب بمعناه العام . وما اسرع ما نقع عليها .. ما اسرع ما تبدو لاعيننا وتملأ قلوبنا روعة في سيرة كثير من العلماء في ذلك الحين : في اسلوب حياتهم من نحو ، وفي عملهم العلمي من نحو آخر .

والاتصال بحياة هؤلاء العلماء الذين سكبوا نور عيونهم ليوقدوا به شعلة المعرفة ، وليحفظوا عليها القها ، والتعرف اليهم هؤلاء الذين حفظوا قيم الجماعة العليا واحتفظوا بمثلها حية نابضة ليسلموها بعد لاجيال النهضة .. هو الذي يكشف لنا عن صور البطولة ففي سيرتهم تتمثل معانيها ، وما كانت حياتهم الا تجسيداً للمثل الاعلى الذي رسمت الحركة العربية مع الرسول الكريم أبعد ذراه

واذا كان الشعر تبدّى لنا ، ونحن ننبش هذا التراث ، كالنبعة الجافة يشير مجراها الى ماضيها الثرّ على حين تلهث الحصا فيها من ظمأ ، ويتحرق التراب من جوع ، فان النبع في الحق لم يجف وان كان كذلك بدا لنا .. انه غاض هنا على ألسنة الشعراء والناثرين ، ولكنها أنبجس هناك في سيرة العلماء والمصلحين .. انه تخلى عن ثوبه الفني ليتبدى في ثوبه الواقعي — في سلوك هؤلاء الذين سنشير اليهم : في صرامة هذا السلوك - وفي مواقفهم : في أصالة هذه المواقف ونبلها - وفي حوادث حياتهم : في ارتفاع هذه الحوادث عن المستوى النازل الذي كانت تتردى فيه الحياة .. وكيف يجف النبع ومن ورائه هذا الرصد الفخم ، من ورائه يمده سبعة أبحر ، وسبعة قرون ، من الحركة والفكرة ومن الدعوة والجهد ، ومن التنمية والتنشئة ، ومن الثقافة والعلم ، ومن الحياة والغنى . ان في وسع المغول ، مغول كل عصر ، أن يهدموا طاقاً أو قصراً أو جسراً ، ولكنهم لا يملكون أن يهدموا القدرة المستكنه على إبداع شيء مماثل للذي هدموه . بل لعلهم يتيحون للذهن الانساني الحر أن يجدد في بنائه وان يتخلص من بعض عيوبه .. انهم يستطيعون أن يحرقوا الكتب ، ولكنهم لا يطفئون الاذهان ، وقد تختل الذاكرة الفردية ، ولكن ذاكرة الجماعة لا يمكن تختل أو تموت .. والذين أزعجوا العربي عن مكانته ، وتنزلوا منزلته انما اتاحوا له فترة من استجمام يستطيع معها ان يجمع نفسه : وان يرمم قواه لينطلق بعد انطلاقته الجديدة ، وان يبدأ حركة الحفاظ والمقاومة من هذين القطرين المتجاورين المتكاملين في كل مراحل التاريخ ، من الشام ومصر على السواء :

وحين نأخذ انفسنا بدراسة سيرة هؤلاء العلماء في هذه

(١) لم يتوقف هذا البحث عند الأدب الشعبي ، فقد أفرد له المؤتمر يوماً خاصاً . وانظر البحث القيم الذي القاه الاستاذ الدكتور عبد الحميد يونس في ذلك .

العصور تتمثل لنا مظاهر البطولة في ناحيتين اثنتين :

١ » اولاهما في العمل العملي الذي التزموه .

٢ » والاخرى في الخلق العلمي الذي احتذوه .

ومن تجاور العلم والعمل ، الخلق والخلق كان نسيج البطولة التي رعاها هؤلاء العلماء :

١ » اما عن العمل العلمي فما احسب ان الوقت يتسع لاحدثكم عنه .. حسبي ان اذكركم بهذه الافكار الشائعة التي تعرفونها من ان عمل العلماء في هذا العصر كان استحياء لهذا التراث الذي دمره التتار في تحريق بخاري وتغريق بغداد ، او الذي انصرف عنه من جاء بعدهم .. كانت الموسوعات في كل جوانب المعرفة هي تجسيد هذا التراث ، من جديد : صيانته ، وتقريبه ، والحيلولة بينه وبين ان يمتد اليه الضياع .. وبذل العلماء في مصر والشام بخاصة وفي غير مصر والشام في هذا السبيل من الجهد ما يبعث على الاعجاب حقاً .. **كان معنى الحفاظ في الحياة العلمية هو الذي يملأ اذهان هؤلاء الاعلام .. والحفاظ أول مراحل المقاومة ، وكان هذا الحفاظ معناه الحضاري العميق** ، فأقبلوا عليه : جمعوا ودونوا وانشأوا هذه المؤلفات الفخمة انشاء جديداً في تصنيفه وتبويبه .

ولكني لن اترك هذا الحديث الذي تعرفونه عن الحفاظ العلمي قبل ان اشير الى جانب هام منه يلفت النظر طيلة هذه الفترة من سقوط بغداد حتى عصر النهضة . وذلك ان الحفاظ **اولى صفاء اللغة أعظم اهتمامه** .. والعجيب انه رغم كل الامواج الهادرة الطارئة على الحياة العربية ، ورغم كل العناصر الدخيلة التي لم يقدر لها أن تتعرب كما تعربت العناصر الغريبة في العصور الاولى .. فان عدداً كبيراً من المؤلفات في الغريب والدخيل يعود الى هذه الفترة ، وعدداً كبيراً من المعاجم والمراجع اللغوية انما هو ابن هذه العصور .. لكأنما استيقظ في اعماق الجماعة التي كانت مغلوبة على امرها آنذاك ان **الصفاء اللغوي** هو اول معاني الوجود المتميز .. وان هذه اللغة التي وعت ثقافة الذهن البشري كله ، انما هي احدى النقاط الرئيسية لانطلاق جماعي لافرقة فيه ولاتمزق نحو شوط جديد في الطريق الانساني الرحب .. وان كل حركة مقاومة للضغط او استعلاء على الواقع الالي ، او حافظ على معنى الوحدة ، يجب ان يكون لها جذورها العميقة في روح الجماعة ، وما من شيء آخر يغذي هذه الروح ويثير عندها ابعد آمالها وارفع مثلها ويجمع حولها الاغراض والاهداف كاللغة .. يحمل كل حرف منها حيث وجد من كل كلمة شحنة ضخمة من فكر وعاطفة ومثل .

ولست لاعدد لكم هذه الكتب اللغوية ولا العناية التي بذلت فيها حرصا على الصفاء اللغوي .. ولا ماكان من اثرها البعيد في ربط حلقات هذه السلسلة من تاريخنا ، بل ومن وجودنا .

ولكن مضطر ان استوقفكم لاوجز لكم الحديث . عن ظاهرتين بارزتين تلفتان النظر حقاً في هذه العصور :

١ ــ اولاهما في نظرة هؤلاء العلماء الى الحياة الفنية

ب ــ والثانية في نظرتهم الى الحياة الفكرية .

١ ــ ففى الحياة الفنية تذكرون سيطرة السجع ، وغلبة البديع ، وتحكم الزخرف وظهوره على اللفظ الحر والفكرة النيرة ..

ولكن هذه السيطرة ذابت على اقلام هؤلاء الناس والسنتهم ، فاذا مثل ابن يتمية وابن القيم ، واذا مثل ابن خلدون يكسرون هذا الطوق من الذهب ، ويحطمون هذا الغل ، ويطلقون الجملة العربية ، اريد ان اقول يطلقون الفكر العربي من هذا الاسار .. فيكتب ابن خلدون مقدمته طلقة ، حرة ، لايظهر فيها ولايظهر عليها الا فكرته التي يعالجها بعيداً عن كل قيد ، انوفاً من كل زخرف .. ويتحدث ابن العماد الحنبلي صاحب شذرات الذهب . في ترجمته للعز بن عبد السلام فيقول : ولي الخطابة في دمشق فأزال كثيراً من بدع الخطباء ، ولم يلبس سواداً ، **ولا سجع خطبته ، كان يقولها مترسلا** .

واي ادراك اسلم واعمق من ادراك هؤلاء اليقظين للآثار البشعة التي خلفها السجع حين حجب الفكرة ، وحجر الاسلوب واضحى غاية في ذاته .

ب ــ وفي الحياة الفكرية يقذف في قلوب بعض هؤلاء الاعلام ان الفكر العربي لم يؤت الا من هذا الجانب المزيف الذي اصطلحت على تزييفه عناصر لم تستطع ان نستعرب او ان تتمثل العربية لغة وفكرا ، روحاً ومعتقدا .. وان هذه العناصر ، قصداً او خطلا ، شدت الفكر العربي الى الضلال الاعجمي ، وابتعدت به عن الطبيعة الفكرية السليمة .

واقرءوا ان شئتم خطبة كتاب لابن تيمية اسمه تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل ، وقد نقل الخطبة ابن

عبد الهادي في كتابه « العقود الدرية في مناقب ابن قيمية » فقال منها :

« ثم ان بعض طلبة العلوم ، من ابناء فارس والروم ، صاروا مولعين بنوع من جدل المموهين ، استحدثه طائفة من المشرقيين ، والحقوه بأصول الفقه في الدين ، راغوا فيه عن موادعة الثعالب ، وعادوا فيه عن المسلك اللاحب ، وزخرفوه بعبارات موجودة في اكلام العلماء ، قد نطقوا بها غير انهم وضعوها في غير مواضعها المستحقة ، والفوا الادلة تأليفاً غير مستقيم .. فلذلك آخذ في تميز حقه من باطله .. الخ »

٢ » هذا كله عن العمل العلمي في روحه واسلوبه .

أما عن الخلق والسلوك في حياة هؤلاء العلماء والآفاق الرفيعة التي كانوا يتطونها الى غاياتهم فذلك الذي اريد ان اقف بكم عنده .. لانه هو الذي يمثـــل ، في صفاء التق الشمس ووضوحه ، استمرار تقاليد البطولة في تاريخنا الطويل .. ولن استطيع ان اقول كل الذي اريده ، انما احب ان اسمي لكم ثلاثة او اربعة من ابرز من عرفنا من رجالنا في هذه الفترة او قريبا منها العزابن عبد السلام « ٥٧٧ ، ٦٦٠ » والنووي « ٦٣١ — ٦٧٦ » وابن تيميه « ٦٦١ - ٧٢٨ » وتلميذه بعده ابن القيم « ٦٩١ - ٧٥١ » وآخرون كثيرون .

والحق اننا حين نعرف حياة هؤلاء الاعلام يروعنا منهم في ضباب هذه الاحداث السود — هذا الضباب الكثيف الواطىء الذي يكاد يلامس الارض ويغطي الطريق على السالكين — يروعنا منهم هذه الشخصية المتوثبة المتفجرة التي استطاعت بقوتها وصلابتها ان تعدى كل شيء حولها ، وان تحيل ضعفه الى قوة ، وتخاذله الى نصـــرة وتفرقه الى وحدة ، ومعاني الانسانية المنكسرة فيه الى مثل صورها السليمة الاولى .

ولم يكن هؤلاء الاعلام يستمدون ذلك من جاه موقت او سلطان زائف .. لم تكن لهم اصول عريقة ، ولم يحملوا على اكتافهم شجرة انساب . وما احتموا قط بما يحتمي به الناس : ظل امير ، او نفوذ متسلط ، وانما نسخوا ظلال الامراء المبطلين وكشفوا زيف وجود السلطان الضال .. وقالوا على مسمع من الدنيا كلها : هذا لن يكون ، فلما لم — يستجب لهم السلطان طوعا استجاب لهم كرها .

قيمة هؤلاء الاعلام ايها السادة في هذا السلوك المتفرد الفذ انهم جسدوا اولاً معاني البطولة التي اوشك ان يأتي عليها الزمن ، وان تدفنها الاحداث بأيديها التي تقطر منها الدماء .. وانهم احيوا في نفوس العامة ، نفوس الجماهير ، من اقصى الارض الى اقصاها ايمانها العميق بان السيطرة ليست للرغبات الضالة ولا للأهواء المنحرفة ، وانما هي = هذه السيطرة الحكيمة العادلة — لله وحده .. فاستردت هذه الجماهير ايمانها ، ولمعت لاعينها دائماً من خلال هذا الايمان صور المستقبل المزدهر صورة الربيع الذي تبشر به الطيور الصغيرة من خلال الضباب والسحاب والمطر المتساقط .

وقيمة هؤلاء الاعلام انهم زرعوا الخوف في نفوس الظالمين .. وليس شيء يهدم الظلم مثل ان يداخله الخوف .[1]

وقيمتهم كذلك انهم صححوا الطريق للمجتمع الهائم كله آنذاك .. ادركوا بداية الانحراف منذ فقد الناس ثقتهم بعد التهم ، فارتدوا بهـــم الى بداية الطريق .. عرفوهم انفسهم وعرفوهم ربهم ، وقالوا لهم هذه سنن الكون في الخلق ، فليس لكم بعدها ان تهابوا او تجزعوا .. فاذا هذا التحديد الرائع البسيط يؤتي ثمرته بعد حين في حركات الاصلاح التي تتالت بعد ذلك اول عصور النهضه .

كذلك كان من قيمة هؤلاء ايها السادة انهم خرجوا من سلطان شهواتهم ، وكانوا في سلوكهم تعبيرا حيا عن دعوتهم .. انهم لم يقولوا للناس قاتلوا ونحن هنا قاعدون ، وانما قاتلوا معهم[3] .. ولم ينهوهم عن الاثم وهم غارقون في الاثم .. ولم يدفعوهم في حيث لم يندفعوا هم قبلهم .. ان سلوكهم كان كالشراب المصفى لاتلمح فيه قذى . كان كصفك العين ، القذاة — الصغيرة تفسد عليها الرؤية الصحيحة وتبعث فيها الدموع وتحيلها الى عطاله ، لاترى ، ولا يرى الناس منها الا الجفن الغليظ الاحمر .

---

(١) ان يداخله الخوف ... فقد نقل الذين ترجموا للعز بن عبد السلام انه لما بلغ السلطان خبر قتله قال : لم يستقر ملكي الا الساعة لانه لو امر الناس في بما اراد لبادروا الى اقتتال امره

(٢) عن دعوتهم ... ففي حديثهم عن النووي يقولون : ولي دز الحديث ، وكان لايتناول من معلومها شيئاً ، بل يتقنع بالقليل الذي يبعث به اليه أبوه .. وكان لايأكل في اليوم والليلة الا أكلة واحدة

انهم لم يقولوا للناس

(٣) وانما قاتلوا معهم ، وألبوا على الحرب ، وسفروا بين الملوك في سبيل توحيد الجيوش ، وقاتلوا وقتلوا ... ولم ينهوهم عن الاثم ..

قيمة هؤلاء العلماء بعد انهم لم يذعنوا للواقع او ينسابوا معه ، ولم تطغهم طيبات الحياة الدنيا . لم يمجدوا الحياة لان الحياة الذليلة الضعيفة التي يقهر فيها صاحبها لاتستحق ان تحيا بله ان تمجد .. وانما اخضعوا هذه الحياة للذي يذهبون اليه من رأي او يعتقدون من سلوك .. فعجز كل ذوي السلطات عن ان ينالوا بينهم قلامة ظفر ، وتهاوت تحت اقدامهم كل الوان العذاب .. وهزئوا في ثقة عجيبة — في الصخر بعض معاني صلابتها — بكل القيود المالية .. واستحالت — في معجزة النفس الكبيرة عندهم — كما استحالت النار برداً وسلاماً على ابراهيم — استحالت السجون والقيود جنة وبستانا .. حتى لقد قال ابن تيمية ، وكان قد سجن اكثر من مرة في دمشق والقاهرة والاسكندرية هذه القولة الرائعة : « مايصنع اعدائي بي ؟ انا جنتي وبستاني في صدري ، اين رحت فهي معي لاتفارقني ، انا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، واخراجي من بلدي سياحة .. »

ياقوة النفوس الكبيرة حين ترى القتل شهادة ، والحبس خلوة .. حين لاترى في كل المشقات التي تلقاها معناها المادي الارضي ، ذلك لان معنى المثل الاعلى جعل للقيم في اذهانهم سلماً آخر ، فليسوا هم بالمحبوسين وانما المحبوس من حبس قلبه عن ربه ، وليسوا هم بالمأسورين وانما المأسور من اسره هواه ، حتى قال ابن القيم عن ابن تيمية هذه القالة المشرقة : « المحبوس من حبس قلبه عن ربه ، والمأسور من اسره هواه ... » . وحتى قال النووي في رسالة بعث بها للظاهر : « واما انا في نفسي فلا يفترني التهديد ولا اكثر منه ، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان ، فاني اعتقد ان هذا واجب علي وعلى غيري ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة .. »

من كل هذا ندرك كيف كان هؤلاء الاعلام يحملون معاني البطولة وبطولة الرأي والفكر ، وبطولة الخلق والسلوك في هذه الفترة ، وكيف حفظوا الشعلة المقدسة التي اوقدتها الجزيرة وارادت الظلمات ان تطفئها .. ان معاني البطولة وسمات النبل الاعلى انما بدت في هذه النماذج الفريدة من الناس .. وقد كنت اتمنى ان اسوق لكم بعض التفاصيل الاخرى من حياتهم .. ولكني ان جانبتها فلن اجانب الاشارة الى ناحية اصيله اولاها هؤلاء الاعلام اكبر اهتمامهم وتلك هي حسن تمثلهم للعقيدة وحفاظهم على صفائها من كل زيغ طارىء او شبهة دخيلة .

وكما كان **الصفاء اللغوي** غاية هؤلاء العلماء في عملهم العلمي .. كذلك كان **الصفاء في العقائد والصفاء في السلوك غاية هؤلاء** العلماء في اتجاههم الخلقي هناك حاربوا الدخيل اللغوي وهنا حاربوا الباطل العقدي والانحراف الخلقي .. والسياج الذي اقاموه حماية للغة اقاموا مثله حماية للعقيدة والخلق .. والفوا هناك في الدخيل والاصيل والعربي والمعرب حتى يستوى للغة نقاؤها .. والفوا هنا في البدع والضلالات واسرار الباطنية حتى يستوى للعقيدة نقاؤها .. هناك حكموا على اللفظة الدخيلة والغريبة والضعيفة فاستبعدوها او افترضوا وجوب استبعادها من اذهانهم والسنتهم .. وهنا حكموا على الزيغ والانحراف والتلفيق واختلاف الباطن والظاهر وعرضوا روح الانسان صافية بسيطة حتى يكون سلوكه كذلك صافيا بسيطا .. وهناك آمنوا بأن اللغة خيط الاستمرار لانها تحمل الماضي كله لتتفتح عن المستقبل كله كما تحمل البذرة السنابل السبع كذلك آمنوا هنا بأن العقيدة هي خط السير وهي العاصم لهذا الخط ان ينحرف ، فلا تتردى هذه الجماعة من جديد في حمأة الضعف ورذيلة الانحطاط .

وما اشد مايتشابه الموقفان : في العمل العلمي وفي السلوك الخلقي .. في الحفاظ اللغوي المر وفي الحفاظ على الخلق الصلب الوعر ». وكيف لايتشابهان . اليسا نبعة واحدة عن المثل الاعلى الذي رفعه هؤلاء الاعلام ؟ .

ايها السادة :

لقد قلت من قبل ان المقاومة والحفاظ والتأبي هي صور البطولة في هذه الفترة البطولة في اتجاهها العلمي والفكري والسلوكي .. ولم نستطع ان نلتمس هذه الصور عند الشعراء وانما وجدناها عند العلماء .. فقد كان هؤلاء العلماء الذين منحوا البطولة وجودها في هذه القرون بين سقوط بغداد وبين النهضة كالواحات : تجدد عزم الركب وترد اليه امله بعد يأس .. بل انهم في بعض اللحظات بدوالي وانا اعد هذا البحث كما لو كانوا هذه الجزر الناتئة في هذا المحيط المظلم الذي يفصل بين دخول المغول بغداد ونزول الصليبين الشام ومصر ، وبين تفتح الذهن العربي والنفس العربية في القرن التاسع عشر .. كانت جزرا صغيرة ولكن العين لاتخطئها على سعة هذا الخضم الهائل .. لانها كانت تتحدى في وجودها المستقل المتميز معاني الطغيان في هذا الخضم الهائل .. كانت كأنما ترفع راسها في وجه الاعصار . تفرح بالجزر ولكنها لاتخشى المد لانها حين ينحسر عنها ، تخرج

البقية على الصفحة « ٤٩ »

الى كسلى

لهفتي أن ألم منك الخيالا ... واذا قلت ان اعي الاقوالا

مزقتني منك الرموش فقلبي ... نهب رمشيك ، خفقة واشتعالا

كل اعضائك انتقال كسول ... يهرم اللحظ في مداها انتقالا

فاذا سرت فالخطى نسمات ... راسمات على الثرى امالا

وتشيرين بالبنان فتهفو ... شهقة النور للبنان امتثالا

كدت تهمين ماء حسن فلما ... جمد النهد ما استطعت انهمالا

فتبقت منك الجدائل تجري ... مائجات على النسيم دلالا

هذه خصلة أغارت لتردي ... في ذرى النهد برعماً قتـالا

قد سقته من السواد خيالاً ... وسقاها من السهار ظلالا

وتلمظت بين شربين يا ثفـ ... ـر فأقدم فان صبرك طالا

محمد حريري

لؤلؤ على الطريق ..

قصة بقلم :

غسان كنفاني

صمت المذياع فجأة ، وسمعت دقات ساعة منهوكة تأتي من اقصى المدينـــة ، ثم اندلق الصوت دفعة واحدة فدوت اغنية ماضية قطعها صوت يهنىء بحلول العام الجديد ..

من الايام ... لقـــد مات صاحبي ، وبطل قصتي ، في مطلع العام ، وهكذا فانه من الصعوبة بمكان ان ننس موته ، ولذلك فنحن مجبرون على ان لا ننس قصته أيضاً !»

ولكن الغرفة بمن فيها بقيت صامتة كما كانت ، كان صمتاً من ذلك الطراز الذي يحتار الانسان في تفسيره : انصمت ، يا ترى ، لاننا ودعنا عاماً حافلاً بالعذاب ؟ ام لاننا سوف نستقبل عاماً آخر . لا يبدو أقل عذاباً ؟ ام للأمرين معاً ؟

كان من الضروري ان يحرك انسان ما الجو المخنوق ، وهكذا اقترح حسن ان نخرج الى الشرفة ، حيث نتنشق هواء العام الجديد قبل ان تبتذله انوف الآخرين ، كان الظـــلام مخيماً بقسوة ، وكان ، لهب احمر في نهاية الافق ، حيث تحرق شركات النفط الغاز المتبقى عن حاجتها ، كان اللهب يترنح في محاولة يائسة لانارة الافق كله ، وكان يتهاوى بين الفنية والاخرى حتى يغسل الارض بذوبه ، ثم ينطلق من جديد .

« اننا نربح كثيراً ، كثيراً جـــداً ، ولكن هنالك من لا يستطيع ان يشم رائحة طعام طهي جيداً ..»

قال حسن ذلك فيما هو يتكىء على حاجز الشرفة ، بينما اقتعد الباقون حافة النوافذ الواطئة .

كنا قد عفنا مثل هذا النوع من دروس الاخلاق ، كنا نعرف كل شيء عن الناس الذين يذوبون فيماهم يفتشون عن وسيلة للعيش ، وكنا نعرف ، أيضاً ، ادق التفاصيل عن بطولة الذين اتوا من بعيد كي يعيشوا ، فماتوا من فرط ما تاقوا الى العيش .. وما كنا بحاجة لدرس جديد في الاخلاق ، يأتي من الانسان حالم ، يأكل الافق متجهمة ، ويتكىء كالشعراء على حاجز الشرفة .

الا ان صوت حسن مالبث ان وصل من جديد ، محتوياً على شيء من تحفز التحدي :

— « أعرف قصة حدثت قبل عام كامل ، في مطلع العام الماضي ، وكنت انا احد أبطالها . »

وعاد الى صمته ، وبدا لنا انه قـــد كف عن رغبته في التحدث ، ولكنه عاود ، من جديد :

— « يجب ان يموت الانسان في مطلع عام ، او في نهاية عام ، فذلك ادعى لحفظ تاريخ موته من انسان يموت في يوم

لقد اصبح من الواجب ، الآن ، ان يسأل احدنا ، ولو دون ان يرغب في ذلك :

— « وما هي القصة ؟ »

— « القصة يا سيدي غريبـــة حقاً .. وان كنت أتعمد نسيانها اثناء العام ، كي لا يكذبني الناس ، او اكذب نفسي فان لمن العبث ان انساها الآن .. ونحن في مطلع عام .. لماذا ؟ آه .. انني لا ادري على الاطلاق .. ولكنني اشعر انـه من العبث ان انساها اكـــثر مما فعلت ، ولذلك ، فلا بد ان يستمعوها مني ، وقد يخفف هذا عني بعض الشيء ، ايضاً ..»

واستدار حسن ، فواجهنا وجـــه مظلل بمأساة متبددة كتقاطيعه ، كان اللهب الاحمر قد ارتفع في نهاية الافق حتى اقصاه ، ثم انخفض الى الارض من جديد ، وقال حسن :

— « لم اكن ادري ان سعد الدين سوف يلحق بي الى هنا .. صحيح اننا عشنا طفولتنا سوية ، لكنني حصلت من الشهادات ، فيما بعد ، ما عجز هو عن تحصيله ، ولذلك فان امكانية الكسب كانت متوفرة في حالتي اكثر مما هي في حالته ، ولكنه رغم ذلك اتى الى هنا ، طامحاً طموحاً شديداً ان يربح شيئاً ما ، وكان هذا الطموح ، يورثه حماسة لا تهدأ .

لقد رحبت به ضيفاً في منزلي ، وكنت اعنى به قدر طاقتي ، ولكنني لم اكن استطيع تقديم اي شيء يسهل له طريق وظيفة ما ، ولم يكن الصراع على باب دوائر الدولة في صالحه ابداً ، وكانت شهاده اي انسان تعني بالنسبة له كفاً مبسوطة توشك ان تصفق بقوة لاترحم ، وكنت على استعداد لتحمل سعد الدين اطول مدة مقدرة ، ولكنني لم اكن استطيع ان امنع نفسي من ان اشرح له بين الفينة والاخرى ان الوظيفة بالنسبة له بعيدة ، وان عليه ان يعود الى بلدته حيث يمكن للمشكلة ان تحل بطريقة او باخرى ، قلت في مرة ان العجلة التي تدور هنا شرسة الى حدود اسطورية ، وانها لاتهتم بالانسان الفرد على الاطلاق ، وان الجوع بالنسبة للبذخ الماثل لايمكن ان يكون الامنظراً مسلياً فحسب ، وان

الناس هنا يلهثون راكضين وراء القرش الى حد انهم لا يلتفتون خلفهم كي يشاهدوا الزاحفين .. ولكن سعد الدين لم يكن يهمه من الامر شيئاً ، ولقد قال لي مرة انه لا يمكن ان يعود بلا عمل ، وبلا مال ، وانه لا يستطيع ان يتحمل على الاطلاق نظرة صديق او عدو ، يقول له ، او يهمس ، او يشير ، او لا يقول ولا يهمس ولا يشير ، كيف يعود من وادي الذهب بلا ذهب ؟

ياسعد الدين ..

كنت اقول له بين الفينة والاخرى :

ـ يا سعد الدين ، غداً سوف ينتهي ماجلبته معك من مال ، فكيف تريد ان تتصرف ؟ هل تتوقع من اصدقائك ان يربوك في بيوتهم كأنك مدلل ضائع ؟ ان صحتك لا تساعدك على العيش اعتباطاً ، انت تشكو ضعفاً مزاً في قلبك يستلزم راحة مطلقة .. وغذاء جيداً .. وهكذا فان جو العائلة يناسبك اكثر من انفراط جو العازب .. يجب ان تعود اذا وجدت في جيبك ثمن العودة ..

ولكن سعد الدين لم يكن يستمع ، كان يريد ان يبقى في المدينة الصاخبة ، السائرة رغم كل شيء ، يفتش ، ويلف ، ويدور ، ويبحث عن شيء ما .

ولكن ، يا اصدقائي ، لن اطيل عليكم ، لقد اتاني ذات يوم فقال ان ما معه من المال يوشك ان ينفذ ، وانه قد وقع في الفخ حيث لا يستطيع ان يستمر اكثر ، ولا ان يتراجع ، وطلب مني المشورة .. ماذا كنت استطيع ان اقدم له سوى ثمن العودة ؟ ولكنه رفض ، كان يريد معجزة ما شأن كل من يأتي الى هنا .. معجزة تملأ جيوبه بالذهب ، وتمسك بيده تقوده بلطف شديد الى داره على بسط ممدودة .. ولقد بذلت ، يشهد الله ، جهداً هائلا من اجل ان اجتث من رأسه اية فكرة تدفعه للتردد .. ولقد اقتنع اخيراً .. ثم ، وخوف ان يتراجع كعادته ، طلبت منه ان يسير معي فوراً الى اقرب مكتب سفر كي يرتبط نهائياً بموعد اقلاع وشيك .

لقد سرنا سوية ، كما اذكر ، تلك الظهيرة ، كان الجو غائماً بارداً ، وكان صمت سعد الدين يورثني حرجاً لاقبل لي به ، وهكذا قررت ان اصمت ان الآخر ، ولكن صوت سعد الدين مالبث ان انقض متلهفاً ، واحسست بكف تشد ذراعي بعنف ، وحين التفت اليه كان نداء مر يلتمع في عيونه ، ويختلج برجاء اخير ، وقال لي شبه متوسل :

ـ اسمع ياحسن ... انا اؤمن ان خلف هذه الزرقة يوجد إله ما .. ولذلك فانا لن اظن مطلقاً انه سوف يتخلى عني ، لقد وضحت امامي طريق جديدة .. ولا بد لي من سلوكها .

ـ اي طريق ؟

انتظر هناك .. أترى ذلك الجالس امـــام القفص في في وسط الساحة ؟ أتعرف ماذا يبيع ؟

ونظرت عبر الساحة ، فرأيت رجلا بائساً يجلس القرفصاء امام قفص صغير ، ولم يكن هنالك اي زبون ، ثم ان الطقس كان بارداً .

ـ لا أعرف !

ـ انه يبيع محاراً .. هذا القفص مليء بالمحار .. انه يجمع المحار ويبيع كل اربع بروبية واحدة .. ان الله وحده يعرف فيما اذا كانت المحارة حبلى بلؤلؤة ام لا .. هذا ابدع «يانصيب» يمكن للواحد من ان يشاهده عمره كله .

ـ وماذا في ذلك ؟ .

ـ لا بد ان اجرب حظي .

أي حظ ؟

ـ الحظ المدفون تحت ركام عذاب عشرة اعوام ، سوف اشتري محاراً بكل ما معي ، لا بد ان اجد لؤلؤة .

ايه ! لقد فقد سعد الدين كل توازنه ، العذاب الطويل الذي امض كل خلايا جسده ، المجهود اليائس الذي كان يبذله في سبيل ان يعيش ، كل هذا جعله يعتقد ان النجاح يكمن في خدعة ما .. في طريق مبطن تحت مظهر ســاذج ، موجود على اي حال هنا او هناك ، ولهذا كله ، كان يصر على ان الثروة والراحة وكل ما طمح له يكمن في بطن محارة مجهولة ..

أتريدون الحقيقة ؟ لقد كانت تجربة رائعة بالنسبة لي ، انا ، ايضاً .. من يدري ؟ ربما وجدنا لؤلؤة ! وربما كانت لؤلؤة كبيرة ، مدورة ، مزرقة بهدير محيط مجهول متباعد .. أليس من الممكن ان يجد سعد الدين اللؤلؤة وان يستمر في النضال هنا ، فترة اطول .. او ان يعود الى منزله وفي جيبه شيء ما ؟

وهكذا ، فلقد توجهنا الى الرجل المقرفص أمام سله المبلول .. ولكنني رغم كل شيء كنت اخاف ان يسحق سعد الدين فشل آخر ، فقمت بمحاولة أخيرة ، ولكنها مستسلمة سلفاً :

ـ سعد الدين ! هل تعرف ان فرصتك واحدة من الف ؟ محارة محارة واحدة حبلى بلؤلؤة ؟ وقد يكون الجنين الثمين

صغيراً كحبة عدس ؟

فقال :

ــ هناك ملايين من المحارات في قاع البحر ، يا حسن ، اتستطيع ان تؤكد ان صاحبنا الغواص لم يحمل المحارات المحظوظة ، ويترك كل المحارات الفارغة هناك ؟

وجلسنا أمام الرجل ، ودفع له سعد الدين كل ما في جيبه واختار كوماً صغيراً من اكوام اكوامه ، اقامه ، وبدا لي في تلك اللحظة ان وجود لؤلؤة في هذا الكوم من القاذورات المبتلة ، طموح لا مبرر له .

وبدأت سكين الرجل تعمل بالمحارات ..

سكين مدببة يدخلها ببراعة فائقة في رأس المحارة ، حيث شققت الشمس نافذة صغيرة تكفي لرأس النصل ، ثم يرفعها بحركة دائرية فتنغلق المحارة عن كتلة لزجة شبيهة باللحم الطري ، وكأنها احشاء حيوان صغير ، وتعمل السكين تنقيباً في قطعة اللحم ، ثم تلقي المحارة العاقر في سل النفايات ، وترتسم الخيبة في عيني سعد الدين ، ثم تمحي تحت اصرار امل جديد ، وتعود السكين تعمل ، من جديد ، ايضاً .

وبدأ كوم المحارات يتصاغر شيئاً فشيئاً ، ثمـــة غمامة مجهولة كانت تهيمن على الموقف ، كانت عيـــون سعد الدين تتشبث لاهثة بالسكين المعقوفة وهي تفتح المحارات الفارغـة ، وكان الرجل يقوم بعمله بكل بساطة ، وكنت قـــد بدأت اتابع سعد الدين ، واكاد اشاهـــد الغصة تمتص صموده بالف خرطوم هلامي .

ايها الاصدقاء .. ماتم ، بعـــد ، كان غريباً الى حدود مذهلة ، لقد تبقت ، ثمة ، محارة واحدة لا غير ، وكان الاجهاد قد وضح على وجه سعد الدين ، فأخذت ارقبه وجلا ، مغفلا مراقبة انامل الرجل وهي تفك غموض المحارة .. لقـــد بدا شكل سعد الدين مخيفاً .. شكل انسان على وشك السقوط في هوة ، وكان يبدو انه قد تعلق نهائياً في هذه المحارة ، وان كل المستقبل لا بـــد وان يكون هناك . وفجأة ، التمع في العينين المهدبتين بريق راعب ، وخيل الي ان الحياة قد تمثلت لمعانا في العينين العميقتين ، لمعانا غريبـاً فحسب ، كان يحدق في المحارة ، وكنت احدق في وجهه ، ثم ، وقبل ان ادرك شيئاً ، سقط سعد الدين على وجهه في الوحل ، وعندما حاولت رفعه ، وجدته ميتاً ! »

. . .

كان الظلام ما زال يخيم بقسوة ، واللهب الاحمر يرتفـع بقوة نحو الافق ثم يهمد فجـأة ، ومرت لحظات من الصمت الميت ، لم يكن احد منا يرغب في التعليق او الحديث ، ولم يكن يهمنا ساعتها ان نناقش حسن فيما اذا كان واهماً او مبالغاً او كاذبا ، ولكننا لم نكن نستطيع ان نخلع انفسنا عن القصة .

ووصل صوت حسن مرة اخرى ، راجفاً متوتراً :

ــ « كان المسكين يشكو ضعفاً في القلب ، ولم يستطع ان يتحمل ، ولكن يتحمل ماذا ؟ صدقوني انني لا اعرف ايها الاخوة لماذا مات سعد الدين ؟ . هل كانت ، ثمـــة ، لؤلؤة داخل تلك المحارة الاخـــيرة الملعونة فمات فرحاً ، أم كانت فارغة كأخواتها العاقرات ، فمات غماً ؟ لقـــد مضى كل شيء بسرعة ، ودون ان افطن لهذا الموضوع ، لقد انساني الجسد المطروح في الوحل كل شيء عن المحار واللؤلؤ .. وعنـدما انتهينا من نقل الميت ، كان صاحب المحار قـــد اختفى ، بطبيعة الحال .

الكويت ــ غسان كنفاني

« تشرين في السادس عشر »

مطر ! مطر ! يالرائحة المطر !
أنفاس تعبق باللذة ، تشتم رائحة المطر ! .
أمواه تلتطم عجلى ، وصحن الدار يغتسل
ودويحات حول محور .
« يالشتاء ! متى وفد ! »
الصباح كان من صيف ، فالنسوة بالثوب الاخضر
وبالحذاء المزهر
واذا بالليل معتكر ، يوافي في موكب شتا .
طيور تتسابق خفقا ، الى حيث هي تتدثر
وفراش ناعم جداً ، وامرأة ترقب مشهداً :
« المرأة تنظر البركة ، وهي متهتكة في غرفة » .
في الممشى باب حديدي ، قـــد كان يوما معفر
زحزحه فتى أشقر ، فصر بجم الحذر .
« تشرين في السادس عشر »
الفتى يتقدم في خفة
بحصاه يغازل نافذة
فستر ينسدل بغتة ..
وضوء ينطفىء خلفه .
هزيم رعد . . ووميض
وغريزة تلهج للمطر . .
« تشرين في السادس عشر »

سحر كيلاني ــ كلية الآداب ــ جامعة دمشق

البطولة في أدب الاطفال

بقلم الاستاذ احمد ابو بكر ابراهيم

مقدمة

قد يظن بعض الناس ان ادب الطفولة هين المكانة ، لما يبدو فيه من سذاجة الفكرة ، وقرب الخيال والسهولة المطلقة في الاداء ، وقد يقولون اذا قرءوا ما ينطق الطير والحيوان : انها بطولة حقاً ولكنها بطولة الديكة والثعالب والغربان يصورها الخيال في دنيا الخرافة ، فما ايسر البطولة اذا قامت بها العجماوات ، وروت احاديثها الطيور والحيوانات .

وقد يستهين النقدة بأدب الصغار ، يرونه دون اقدارهم فلا يهبطون الى ميدانه ، اشفاقاً منهم ان يتهم نقدهم بالعبث ، ويرمي بيانهم بالضعة والهوان . وهذه الاوهام هي التي صرفت ادباءنا الاعلام عن الاهتمام بأمر هذا الادب ، فلم يتناوله منهم الا قلة نادرة : ألفوا فيه بعض القصص ووضعوا للأبناء بعض المقطوعات التي تناسب ادراكهم . ولكنهم ضنوا عليه بالنقد والتوجيه ، فلم يتعرضوا له مؤرخين ، ولم يبينوا للناس غاياته واهدافه ، ولم يضعوا له القواعد والاصول تلك الموازين التي تهدي الى مايصلح منه ومالا يصلح لمراحل الطفولة المختلفة ، ومن ثم كثر متكلفوه وصانعوه وامتلأت مكتبات الاطفال بالغث والسمين والضار والنافع ، ووقف المربون من هذا الانتاج في اغلب الاحيان موقفاً سلبياً ، فلم يقطعوا فيه برأي وانما تركوا امره الى الطفل يلتمس منه ما يشاء ، فأصاب من قراءته النفع والضرر والخير والشر على السواء .

وعندي ان ادب الاطفال اهم الآداب جميعاً اذا كان قياس الادب بأثره الباقي في النفوس فهو بذلك يعد الادب الموجه للجيل الصاعد ، وغارس العادات ، ومقوم الاخلاق ، وموضع امل الآباء والمجتمع والامة . بل يعد ادب الحياة ، لانه الادب الصانع لمستقبل الحياة .

ولست اشك في ان نقد هذا الادب من الصعوبة بمكان على الرغم من السهولة البادية في خياله واسلوبه . ذلك لان احكام الناقد في كل صورة من صوره ترتبط بالدراسات النفسية والاخلاقية اكثر مما ترتبط بأصول النقد والبلاغة ، والعارفون لاتجاهات الطفولة يعلمون ان الادب الرفيع قد يكون اسوأ ما يقدم الى الاطفال لانه ببلاغته وبعد مراميه ، يوقعهم في حيرة ويعقد عليهم المسالك ، وقد ينفرهم من الادب مدى الحياة . ولا بد لنا اذا شئنا التأليف الادبي للأطفال او اردنا نقد ما يقدم اليهم من آداب ان نتعرف على هذه النفوس الغضة ونلم باتجاهاتها ، حتى يكون عملنا واقعاً موقعه من الصواب .

ولست مبالغاً اذا قلت ان الدراسة النفسية ستقفنا على امر عجيب : سنعلم ان الاطفال شعراء العاطفة ، وليغفر لي الشعراء اذا قلت : ان الطفولة تلتقي بالشاعرية في كثير من صفاتها : تلتقي بها في غلبة الخيال ، ورقة الاحساس ، وحدة العاطفة والاقبال على الطبيعة ، والنفور من القيود التي تحد من الحرية ، وفي الايمان بالمثل التي يصورها الخيال سامية عالية ، فالطفل شاعر حين يستنطق الجماد ، ويخاطب الطير والحيوان ، وشاعر حين يفر من الواقع الى قصص ينسجها الخيال ، وشاعر بصفاء نفسه التي تنعكس عليها صورة الحياة ، : فيتفاءل ويتشاءم ، ويحب ويبغض ، ويقبل على الناس وينفر منهم . كل ذلك يهديه اليه قلبه الرقيق الفياض بشتى العواطف .

وانما سقت هذا التشابه ، لأبين ما تشتمل عليه هذه النفس الصغيرة من اقبال على الأدب اذا نحن أحسنا اختياره ، وقدمناه اليه في ثوب شاعري يتفق وميوله وعندئذ فقط نستطيع ان نرسم له المثل العليا التي نريد في اطار شائق من الأدب يجتذب نفسه الصافية ، فتسير على هداها الى ما نبتغيه من الغايات الكريمة والآمال العزيزة .

أدب الطفولة وبطولاته في أدبنا .

لعلنا ندرك بعد هذه المقدمة أن ادب الطفولة ليس هيناً يسيراً – كما يبدو – فالشعوب التي اصطنعت الأدب في أعلى صورة البلاغية لم تستطيع أن تصل الى الاحسان في أدب الاطفال الا بعد دراسات واسعة ، اهتدت لها الى دراسة الطفولة نفسها ، دراسة كشفت عن أسرارها وأوضحت معالمها. ومن اجل هذا لا نكاد نجد في أدبنا العربي قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر الا اثر ادب الاطفال ، وان كنا نجد في ثناياه ألوانا قليلة قد تصلح لبعض مراحل الطفولة ، لم يضعها الأدباء – حين وضعوها – للاطفال ، وانما أرادوا بها التسلية أو العظة ، أو استهدفوا بها العوام من الناس ، فجاءت دون قصد منهم – صالحة بفكرتها أحياناً وبأسلوبها في قليل من الاحيان .

ونحن اذا عدنا بخيالنا الى صحرائنا العربية قبل الاسلام ، نجد هذه الصحراء مليئة بالاحداث ونجد صوراً من البطولات تزخر بها اشعار الشعراء وقصص الرواة ، وتتردد هذه وتلك في المجتمعات فتتناثر على مسامع الاطفال : يتلقفونها اول الامر دون وعي ، فلا تزال تلح عليهم كلما تقدم بهم الزمن ، حتى تحل في نفوسهم محل العقيدة ، وتدفعهم بتأثيرها القوى في طريق الابطال الذين اعزوا شأن القبيلة واعلوا مكانتها .

ولقد كانت الأمهات بما ينظمن من اشعار البطولة اسبق من ادب القبيلة في التأثير ، فقد كن يدللن اطفالهن بأشعار الحماسية منذ الصغر ، فتتفتح عيونهم على احاديث الشجاعة ، واباء الضيم ، ولقاء الاعداء وهاهى ذي كنزة المنقرية تدلل طفلها شملة بقولها :

فان يك ظني صادقي وهو صادقي
بشملة يحبسهم بها محبساً ازلا
فيا شمل شمر واطلب القوم بالذي
اصيت . ولا تطلب قصاصاً ولا عقلا

ولا نحسب الطفل في مهده و حداثة سنه يدرك الاغراض البعيدة من هذا الكلام ، ولكنه الايحاء المستمر يواتيه من كل جانب : من امه ومجتمعه وقبيلته ، فينبه احساسه ويلقي بالشرارة الاولى في نفسه فلا تزال تتوهج كلما مر الزمن ، حتى تحيلها آخر الامر الى نار متأججة ، لا يهدىء من اوارها الا دم الاعداء في ميدان القتال .

ولم اجد كذلك فيما قرأت من ادب اسلامي ما يشير الى ظهور هذا الادب ، وانما هي التفاتة فقط الى تعليم الصغار بما يقدم اليهم من تعاليم الدين ،وآداب تدعو الى الفضيلة والاخلاق وعناية بقصص الابطال يتصدى لها القصاصون في المساجد ، دون نظر الى مستوى السامعين

ثم كانت انطلاقة الفكر في العصر العباسي ،فترجمت كتب على لسان الطير الحيوان ،وجمعت قصص تاريخية وغير تاريخية والفت نوادر للبخلاء والاذكياء وغيرهم ، وجمعت رحلات المغامرين والمستكشفين ، واصبح بهذا وغيره في ادبنا العربي مادة صالحة من ادب البطولة للاطفال ، ولكنها - كما يبدو - لم تستغل في وجهها الصحيح ، ولم يلاحظ في اسلوبها صفات خاصة بهم ، وبين أيدينا نصائح الناصحين من المربين من عهد بن المقفع الى عهد بن خلدون وما بعده ، وهي جميعها لاتولى هذه الكتب عناية خاصة . يقول الغزالي ناصحاً المعلمين : عليه (اي المعلم) أن يبدأ بانتقاء الاشعار السهلة ليسهل على الطفل حفظها ،وينبغي ان تكون ذات مدلول خلقي من حث على اصطناع المعروف وقرى الضيف ، وغير ذلك من مكارم الاخلاق ، ولقد بقيت بعض هذه الكتب بعيدة عن الصغار بأسلوبها الرفيع وبقى أبطالها بمنأى عن دنيا الاطفال ، حتى تناولها في العصر الحاضر مهذبون ، فصاغوها صياغة تقرب مابها من معان للناشئين ، وقد يكون من المفيد في هذا الصدد أن نسوق هذا الكلام على لسان دمنة ، ليعلم منه ان الطفل مهما تكن سنه ومقدرته لا يستطيع ان يستسيغه أو يتلقاه بالقبول :قال دمنة : حدثني الامين الصدوق عندي ان شترية خلابرؤوس جندك ، وقال : قد خبرت الاسد وبلوت رأيه ومكيدته وقوته ، فاستبان لي ان ذلك يؤول منه الى ضعف وعجز ، وسيكون لي وله شأن من الشئون فلما بلغني ذلك علمت ان شترية خوان غدار ، وانك اكرمته الكرامة كلها ، وجعلته نظير نفسك ، وهو يظن انه مثلك ، وانك متى زلت عن مكانك صار له ملكك ، ولا يدع جهداً الا بلغه فيك وقد كان يقال : اذا عرف الملك من الرجل انه قد ساواه في المنزلة والحال فليصرعه ان لم يفعل به ذلك كان هو المصروع وشترية أعلم بالامور وابلغ فيها . والعاقل هو الذي يحتال للأمر قبل تمامه .

ان هذه الادلة التي سيقت على لسان دمنة فوق ادراك الطفل وليس في القطعة ما يغريه بالقراءة . على ان كل جملة من جمل هذه القطعة تحتاج الى وقفات للبسط والايضاح ، وليس في نفس الناشىء من الصبر والقدرة على الادراك ما يمكنه من الاحاطة بما يهدف اليه هذا الكلام . ولهذا نقول : ان المؤلفين والمترجمين في تلك العصور لم يحاولوا الكتابة للاطفال في مراحلهم المختلفة ، وانما جاء انتاجهم صالحاً لبعض هذه المراحل من حيث الموضوع وان تدعن آفاقهم في اسلوبه وتصويره في كثير من الاحيان .

ولا أستطيع ان انكر الواناً اخرى من ادب البطولة ظهرت في عهود التأخر ، كان لها شأن بين عامة الناس تلك هي الوان القصص الشعبي ، كقصص الظاهر بيبرس وابى زيد واخبار الصالحين وغيرها ، وكان الاطفال يقبلون عليها اقبالا شديد لما يجدون فيها من حديث الحرب والقتال والضرب والنزال ، ولما يجدونه في اشعارها الحماسية من تلبية لميولهم المتطلعة الى الزعامة وحب السيطرة والمغامرة . يحدثنا الدكتور طه حسين في كتابه الايام عن اقباله على سماع الادب الشعبي فيقول : كان احب شيء اليه ان يسمع انشاد الشاعر ، او حديث الرجال الى ابيه والنساء الى امه ، ومن هنا تعلم حسن الاستماع ،وكان

ابوه وطائفة من اصحابه يحبون القصص حباً جماً ، فاذا صلوا العصر اجتمعوا الى واحد منهم يتلو عليهم قصص الغزوات والفتوح واخبار عنترة والظاهر بيبرس ، واخبار الانبياء والنساك والصالحين ، ، كتباً في الوعظ والسنة ، وكان صاحبنا يقعد منهم مزجر الكلب وهم عنه غافلون ولكنه لم يكن غافلاً عما يتركه هذا القصص في نفوس السامعين من الاثر ويقول : « حتى اذا صلوا العشاء اجتمعوا فتحدثوا طرفاً من الليل واقبل الشاعر فأخذ ينشدهم اخبار الهلاليين والزناتيين ، وصاحبنا جالس يسمع في اول الليل كما كان يسمع في آخر النهار . . . الى ان يقول : ولم يبلغ التاسعة من عمره حتى كان قد وعى من الاغاني والتعديد والقصص وشعر الهلاليين والزناتيين والاوراد والادعية واناشيد الصوفية جملة صالحة .

ويوضح الدكتور في مكان آخر من الكتاب مقدار حرصه على سماع الشاعر الشعبي بقوله : « ثم يذكر انه كان لا يخرج ليلة الى موقفه من السياج الا وفي نفسه حسرة لاذعة ، لانه كان يقدر انه سيقطع عليه استماعه لنشيد الشاعر حين تدعوه اخته الى الدخول فيأبى فتخرج فتشده من ثوبه . الخ » .

وهكذا عاش الاطفال على ادب الكبار ، واريدوا على التماس المثل فيما لا يدركون في اغلب الاحوال ، فشق عليهم ذلك حينا ، واساءهم حينا آخر ، ووجدوا فيه الغذاء الصالح للنفوس في قليل من الاحيان ، حتى كانت النهضة الحديثة ووجدوا الادباء والمتصدون للتربية نماذج منه في الآداب الاجنبية : وجدوا قصصاً ومسرحيات ، واشعاراً يستسيغها الاطفال في حداثة السن ، فترجموا وعربوا والفوا وشهدت مدارس سوريا ولبنان مسرحيات ، فألف خليل اليازجي مروءة وفاء ، وعرب محمد عثمان جلال العيون اليواقظ على لسان الطير والحيوان ، ووضع ابراهيم العرب كتابه « آداب العرب » في شعر قصصي سهل واقبل المؤلفون للاطفال على خرافات ايسوب يستعيرون من قصصها ما يلائم بيئتنا واتجاهاتنا ، وعمد محمد عبد المطلب وعبد المعطي مرعي الى التاريخ العربي ينظمان حوادثه مسرحيات ، وهكذا عرف العرب بعد ان ظهرت اهمية علم النفس ان للطفل مستواه الخاص ولم يعد رجلا صغيراً كما كانوا يظنون . وادركوا كذلك ان الادب اذا احسن اختياره ، وقدم للطفل في اسلوب مقبول كان مؤثراً في نفسه ومقوما لاخلاقه ورأسماله المثل العليا في سيرة ابطاله . نعم لم تكن المسرحيات المدرسية الى عهد قريب ملائمة للأطفال ، ولكنها على اي حال كانت خطوة في سبيل التدرج ، والوصول بعد ذلك الى النتائج الطيبة .

نماذج البطولة في ادب الاطفال :

ولست اود ان اخوض مراحل الطفولة ، وما يصلح لكل منها من ادب البطولة قبل ان اشير الى اختلاف واضح بين نماذج البطولة في ادب الرجال ونماذجها في ادب الاطفال فقد يكون البطل في نظر الصغار آدمياً او غير آدمي : قد يكون طيراً او حيوانا ضعيفاً او قويا ، بل قد يكون جماداً : عصا تسير ودراجة تنطق ، وهكذا . واننا لنجد من خطل الرأي احياناً ان نسوق له الابطال من التاريخ نحدثه عن اخبارهم واعمالهم لانه لا يقدر الزمن ، ولا يدرك حدود المكان فنزى من الواجب تأخير اخبار العظماء ، ووصف الشعراء لمواقع القتال ، وما ينسب الى الاجداد من حماية الاوطان حتى يبلغ المرتبة التي يدرك معها الاسرار التي نبتغيها من وراء هذه البطولات فتقدمها له عالمين آثارها المجدية في نفسه .

ولا نود ان نقف في أمثلتنا البطولية عند الشجاعة وحدها . فهي لون على الالوان ، وانما نعد كل متفوق على نظرائه في نظرائه في الصفات الانسانية بطلا : فالكريم والوفي وذو المروءة والمعين على الشدة أبطال . والصالح والحكيم والصبور أبطال ، والسيامي والمخترع والعالم النافع والذكي وواسع الحيلة ـ ابطال كذلك . نقول ذلك . لأن الطفل يرى في كل هؤلاء مثل السمو والتفوق ، بل يرى فيهم معاني البطولة الحق التي تستأهل التماس الأسوة والاكبار والاجلال .

وليس من الحكمة في شيء ان نصدر حكمنا على أدب من آداب الطفولة دون بيان للمرحلة التي ألف لها او يليق لاطفالها : فقد يكون جيداً لاطفال في سن معلومة قبيحاً بالنسبة لآخرين ومن اجل هذا رأيت الاشارة العاجلة الى مراحل الطفولة مع بيان ما يصلح لكل منها من آداب وبطولات .

« اولا » الطفولة المبكرة (من الثالثة الى الخامسة)

كانت الجدة ولا تزال أدبية هذه الفترة من حياة الطفل ، وكأني بها وقد قرسها برد الشتاء قد اتخذت مكانها المختار حول المدفأة ، ثم اخذت ترسل بصوتها المتهدج الى الاسماع قصة الغول ، والشاطر حسن ، واصبع الملك (او عقلة الصباع) والاطفال في سكون لما يمتلك قلوبهم من الرهبة حيناً ، وعجائب الحياة حيناً آخر ، وليس للجدة من هدف فيما تقول الا ان تغري

البقية على الصفحة « ٥٦ »



لماذا ازحت الستار
ورخيت أضوء النهار
بهذي الزوايا ، بقلبي
فاذكر حبي ،
وشيئا عميق توارى
بصمت البحار
وافتح عيني
فلا غير هذا الجدار
يحملق فيا
ويزحف في مقلتيا
كأمس مثار
لماذا ازحت الستار
وارخيت ضوء النهار
وغمغمت لحناً شقيا
كعمق الى الدهور ،
فايقظت امساً بعيد القرار
وذكرى ترسب فيها الغبار
أأنت شقية ؟
أمثلي أنت شقية ؟

كارض القفار
وليل تعثر فيه الضياء
وذكرى خفية ،
اخاف ! أخاف الضياء
بهذي الزوايا
يحملق فيا
لماذا وقفت الغناء
وبي هكذا تسهمين
وفي ناظريك بقية ،
بقايا شهيه
تحجر فيها الغباء ؟
دعينا ، مللنا ، مللنا الغباء
وعمراً تنهد فيه الشتاء ،
أنبقى هنا ؛
انبقى بارض تجمد فيها فراغ الهواء !!
دعينا نغني هدوء المساء
وننسى الشقاء ،
فهذا الغباء يعيد الينا ليالي الشتاء

* * *

رحلة الضياع

شعر : خليل خوري

الى الانسان، اغنية تأليه، في
رحلته عبر الحياة .

احفر، احفر مسراك صخور
ومدىً يحيا فيه الديجور
وبلاقع سود
وجرود
قامت كالموت بدون حدود
احفر، احفر فمداك بعيد
تيه ممدود
كالموت بدون حدود
ومداك سدود
وبلاقع سود
وجنادل كالصمت المعقود
صحراء رمال
وقفار بدون حدود
ومقالع سود
وجبال جليد
سدت درب الآتي الموعود
فاحفر، احفر مسراك سدود
ومدى مسحور،
وصخور
ودنى افعى فيها الديجور
احفر،
لاظل تراه هناك
لانأمة ظل ممدود
لاماء يبل صداك
وسعير دماك
ويبل جراح عيونك يامقهور
لاشيء سوى طين مصهور
وسراب
وضنى وعذاب
ويباب
لاشيء سوى طين مصهور
في دربك، في مسراك
لانأمة ظل ممدود
تقتات ضناك

لاحبة ماء، ولانور
الصخر، الصخر مدى مسراك
الشوك الشوك ووقع خطاك
لاشيء سوى الصمت المعقود
ولهاث خطاك،
ودبيبك في الليل المكدود
لاشيء سوى تيه ممدود

وسراك، خلال بلاقع سور
وسدود
قامت كالموت تسد سراك
احفر، وليجر الشوك دماك
وليمتص الصخر قواك
احفر، احفر لاماء هناك
لا شيء سوى الصمت الممدود
ونزيف دماك
وصداك
وتحرق عمر مفؤود
وبلاقع سود
وصحارى عمر مكدود
احفر احفر
وليسلمك لهاث ضناك
لليالي الصمت المعقود
واغسل بدماك
اطماع الوحش المسعور
واحفر واحفر مسراك صخور
ومدى يحيا فيه الديجور
وفراغ الطين المصهور
وصقيع ضياع
ابدا، بعروك ضياع
احفر احفر
وليسلمك نبو شراع
لنبو شراع
ضاع بأصقاع الديجور

البقية على الصفحة « ٢٢ »

من : ع – ع ع

الى الاجيال المقبلة

الموضوع : معلومات (حول الكاتب، وعروض الاحوال.)

عرض حال

بقلم :

محمد حيدر

أرى من الضروري أن أذكر لكم اسمي الصريح منذ البداية، رغم أن ذكره لن يعود بفائدة على واحد من الاثنين، ورغم ان هذا العرض والعروض التي ستكتب فيما بعد.. لن تصلكم الا بعد أزمنة طويلة، وفي عصور مغايرة لعصرنا الحالي. وحينئذ ستكون نماذج الأسماء قد تغيرت كلياً، وأصبحت لا تمت الى أسمائنا الحاضرة بصلة. وهذا التبدل الذي أتنبأ به من الآن، لايمكن أن يكون مجال موضعاً للشك، مثال على ذلك، أنني عندما ولدت في أوائل هذا القرن (وارجو أن تسمحوا لي بتأخير اعلان اسمي الصريح، لاسباب ضرورية وحقيقية.. سوف تعلمونها بعد قليل) كانت السيارة – وكنا نسمع بها فقط – تبدو لنا وكأنها من الخوارق التي لا تصدق بحال. فأصبحنا الآن. والطائرات، والصواريخ، والتلفزيون، أشياء تعتبر من مخلفات الحضارة، ويجب ان توضع في متحف الآثار.

لذلك اصبح من اليقين التام، على اساس من هذا التطور الآلي، ان تتغير الاسماء في المستقبل، فتصبح كلمات مثل : نابض، محرك، مقصات، براغي، عازل، حوجلة، مروحة.. من الاسماء الشائعة المألوفة. كما ان الانسان نفسه سيتغير لا محالة. لانه من الملاحظ، ان نمو الآلة يتم بسرعة، وبطريقة لم نألفها ابداً في نمو الكائنـــات الحية. وهذا النمو الآلي سيؤدي بالانسان الى الاستغناء التام عن استخدام بعض أعضائه، أو اهمالها على الاقل، لان الآلات ستقوم بوظائف هــذه الاعضاء. وحسب قوانين علم تطور الكائنات الحية، خاصة قانون «**استعمال العضو، او عدم استعماله**» فان الانسان تبعاً لذلك، ولعدم حاجته لاستعمال بعض أعضائه، سيتبدل قطعاً الى مخلوق آخر. ستختفي أرجل الانسان، لانه لن يمشي في المستقبل على الارض، بل سيطير دائماً في الفضاء بواسطة الآلات، أو مستعملاً جناحين. كما ان المعدة ستزول أيضاً، وبداهة ستختفي الاسنان وكل ملحقات الجهاز الهضمي.. لان الانسان سيعمد في المستقبل على السوائل الغذائية التي تحقق في الدم، وبذلك لن يكون بحاجة الى المعدة. وهكذا سيتغير شكل الانسان، ولن يبقى منه سوى رأسه الضخم وأصابعه الطويلة، نظراً للحاجة المتزايدة لاستعمال هذين العضوين. لان الحضارات المقبلة، ستكون حضارة «ازرار» تعتمد – بصورة اساسية – على الفكر والاصابع.

سيحدث كل هــذا حتما في الحضارة التي ستعقب حضارتنا الحالية. اما في الحضارات التالية، فان الانسان (ولا استطيع ان اعطي لهـــذا التنبؤ صفة اليقين) سيصبح مؤلفاً من قطع متعددة، كما تتألف الآن محالج القطن.. او القاطرات. وربما طبقت على الانسان اساليب توليد جديدة، باستعمال حاضنات ضخمة، كالحاضنات الكهربائية التي تستعملها اليوم في تفريخ الصيصان. !!

هذا التبدل الذي اتنبأ به الآن، يقوم على اسس علمية، وليس ضرباً من الخيال.

وبالمناسبة، فقد تحدثت الصحف منذ مدة، عن نجاح عالم روسي في استنبات رأسين في جسد كلب واحد. كما انني سمعت مؤخراً، حسب اقوال الصحف، ان العلماء الروس ايضاً، توصلوا الى زرع «القلوب» في اجساد الكلاب، وهم في صدد تطبيق ذلك على البشر. ولا اعلم طبعاً الطريقة التي يتم بها هذا الامر، لأن تفصيلات كهذه لم تنتشر بعد. ان اموراً كهذه، تثير الفرح والسرور. لأن الذي يزرع «القلب» سيتحـــكم في تركيبه، فاذا بلغت هذا العصر، فانني سأتقدم بعرض حال، بغية الحصول على قلب آلي، بصورة صرفـــة، لان القضايا العاطفية والرغبات الانسانية، سببت لي في الماضي كثيراً من المتاعب. وهـــذا التقدم، ولا شك، فضيلة ومأثرة كبرى نسجلها باعتزاز الى الروس. الذين يبرهنون في كل المناسبات عن سبقهم جميع الامم في مضمار التحول الآلي !! وسأوافيكم بأنباء كل الاختراعات الجديدة. في عروض الاحوال المقبلة.

وحسب قواعد اللياقة الاجتماعية المستعملة في عصرنا الحاضر يجب ان اعتذر لكم عن هذا الاستطراد. وانني اكرر اعتذاري

مرة ثانية ، وثالثة .. وعدة مرات متتالية . لانكم ستلمسون مني هذا الشرور الذهني في كافة عروض الاحوال المقبلة بحيث يصعب احياناً تتبع الخيط الرئيسي الذي بدأنا به الموضوع . وعادة الشرور هذه ، لاتزال لاصقة بي من اصلي الانساني (مع انني احاول تدريجياً التخلي عن انسانيتي وتقليد الآلة) . وطبعاً لن تقعوا في مثل هذه الاخطاء ، بل ستتحاشون في المستقبل خلق مثل هذه الكائنات البشرية التي تصاب بالمرض ، والشرود والنسيان . !!

لنعد الى موضوعنا السابق :

ان عروض الاحوال التي سأكتبها ، كثيرة ومختلفة ، ولا يمكن حصرها بمجال من الاحوال . انها موجهة ، اصلاً ، الى الاجيال القادمة ، ومقصورة عليها . ولكنها بالوقت ذاته ، موجهة الى اجيالنا الحاضرة .. والى الافراد ايضاً ، حيث يمكن ان يجدوا فيها حالات مشابهة كما مروا به من قبل . وبما انه لن يكون باستطاعتي ان اكتب عروض احوال منفصلة ، لكل فئة اجتماعية ، ولكل جيل ، أو لكل فرد .. على حدة ، فسأكتب عروضاً موحدة ، وكل شخص او جيل يأخذ منها ما يخصه . اما بالنسبة لجيلنا الحاضر ، فسأقدم له صوراً متنوعة عن حياته ، بعضها شخصي ، بصورة صرفة ، وبعضها الآخر مرتبط بالمصلحة العامة . وهذه الصور شاملة : ثقافية ، تربوية ، صحية ، ادبية ، علمية ، اقتصادية ، اجتماعية ... باختصار : ستشمل كافة نواحي الحياة .

ولما كان من غير الممكن ان اتوصل لمقابلة كافة الفئات او الافراد الذين تخصهم هذه العروض ، فقد رأيت من الافضل اقتصاداً في الوقت والجهود ان ابلغهم هذه العروض علناً بواسطة الصحف ، الامر الذي لاشك في فائدته . لان المراجعات عادة خاصة الرسمية تستغرق وقتاً طويلا .. وهذا مناقض لروح العصر الذي يقوم على السرعة في كل شيء . وسبب ذلك انه لايتاح لك ابداً ان تقابل الموظف الذي ستتقدم اليه بعروض الحال ، لانه دائماً مشغول : اما في اجتماعات عائلية طارئة ، او في استقبال صديق قديم .. او يكون قد غادر مكان عمله لشراء لوازم البيت . او كما يحصل غالباً يكون مستغرقا في مطالعة الصحف وشرب القهوة وتدخين السجائر . وطبعا ، لايمكن لانسان بسيط مثلي ان يتخطى التقاليد ، فيجرؤ – في ظروف غير ملائمة – على قطع اجتماعات عامة كهذه .. وذلك من اجل ان يسلم عرضا من عروض احواله التافهة . خاصة وانني كثير الخوف .. حتى من اللهجة العالية . فكيف بي عندما يحدجني الآذن بوجهه العابس ، ويطلب مني الانتظار ؟ وخذ بعد ذلك عيون المراجعين التي تحدق فيك بشماتة !!

انها امور مرعبة الى ابعد الحدود !!

ان هدف العروض بالنسبة للأجيال القادمة هو ان اترك لها « وثائق » تمثل انماطا شتى من حضارتنا الحالية . وهذا امر ضروري لابد منه ، لان الحرب المقبلة وهي واقعة لا محالة ، لن تترك شيئا على سطح الارض من آثارنا الحالية وانما ستردم كل شيء وتدمره وتدفنه في باطن الارض من جراء الانهدامات والانفجارات . ولذا سأكتب هذه العروض وسأضعها في مكان امين جداً .. ولن تعدموا الوسيلة للعثور عليها في المستقبل .

اننا نسمي اليوم الحضارات الماضية : « بدائية » ونضحك منها احيانا ونصفها بالهمجية والوحشية ؛ وهذه تهمة لا شك خاطئة ، وفيها كثير من الظلم والتعرض والانانية !! اذا قورنت اساليب الحضارات الماضية بأساليب الحضارة اليوم . المهم : ان حضارتنا الحديثة الراهنة ستكون قطعا « بدائية » بالنسبة للحضارات المقبلة . واخلاصا للعصر الذي اعيش فيه .. سأدفع سوء الظن والتأويل عن حضارتنا ، فأسجل بأمانة ودقة متناهيتين ، كثيراً من الحوادث لتكون الاجيال القادمة على بينة واضحة من خصائص العصور التي سبقتهم .. ولكي لا تقع في مثل اخطائنا الحالية التي نرتكبها مع الحضارات السابقة !!

لان من الاشياء التي تثير دهشتنا اليوم ، تلك الحفريات التي تقوم بها دوائر الآثار في مختلف بقاع العالم . فعندما يكتشفون بقايا احجار مكسورة .. او عظام نخرة .. او بعض الاواني المحطمة من الفخار ، او الزجاج ، فانهم يتخيلون فوراً تاريخ اصحابها ويرسمون لك حضاراتهم كاملة ، وكأنهم كانوا يعيشون فعلاً في ذلك العصر ، حتى انه ليأخذك العجب والدهشة لبراعة العلماء النادرة في هذا المضمار .

انه لأمر طبيعي جداً ويسير على عبقريات علماء الآثار !! ولكن المضحك في الأمر ان اكتشافات اثرية اخرى يقوم بها مؤرخون آخرون ، او المؤرخون الاولون انفسهم .. تنقض ، او تصحح على الاقل ، كل المعلومات التي اعطيت عن الاكتشاف الاول . ثم تتلو هذه الاكتشافات الثانية ، اكتشافات ثالثة ، فتصحح هذه من جديد « التصحيح » السابق .. او

تنقض معلومات الاكتشافين التي قدمها علماء الآثار والمؤرخون السابقون !.

حتى أن المثقف، كلما سمع حديثاً عن اكتشافات أثرية جديدة .. هز كتفيه بدون اكتراث . لان التاريخ أصبح أخطاءً مستمرة، او تصحيحاً مستمراً لهذه الاخطاء . ومنعاً من حدوث مثل هذه الاشياء .. وجدت انه من الافضل ان اترك مثل هذه العروض، كوثائق .. تقف حاجزاً في وجه التلاعب الحضاري الذي يمكن ان يقوم به المؤرخون القادمون . ولكنني اشك في ذلك كثيراً، لانني انبأ من الآن، بحدس شخصي، ان الحضارات المقبلة، لن تكون بحاجة لكل هذه التسليات !!!

لنرجع الآن الى موضوعنا الاساسي :

ان الاسماء، كثيراً ماتعطي صورة دقيقة عن اصحابها . فعندما يقال لك : « فلان . » فانك تتخيله فوراً وكأنك تراه . ولكن هذا لاينطبق علي، حتى ولا بصورة جزئية . انني اشكل استثناء للقاعدة . ان اسمي لايمت ابـــداً بصلة لشخصيتي . لقد جلب لي هذا الاسم كثيراً من المتاعب . وكان (اقصد اسمي، لا أنا) موضوعاً لاينضب للتندر والفكاهة . واقسم : انني لم اساهم باختيار مثل هذا الاسم . وقد توخيت في مطلع العرض، ان اذكر لكم الرمز الذي استعمله عادة لئلا اثير نفوركم منذ البداية، فتعزفون عن قراءة المعروض، خاصة وانه الاول . ولكنني اشعر الآن بأنني اثرت اهتمامكم، ولذا لم يعد ثمة مبرر لكتمان هذا الاسم .

اسمي : **عصويص بن عكرمة العضروطي** . أكتبه احياناً حسب احرفه الاولى : ع -- ع ــ ع . واحياناً استعمل الرموز الجبرية السائدة، فأكتبه : ٣ ع ــ وقد اتجاوز قليلاً فأكتبة : ع٣ ــ ورغم ان تحويل الرمز : ع ــ ع ــ ع -- أو : ٣ ع الى هذه الصيغة النهائية : ع٣ ــ مخالف لقوانين الرياضيات والجبر، فانه جائز في العالم الانساني .!!

لقد كان هذا الاسم مثار متاعب جمة لي : في المدرسة، وفي الحياة العامة، وفي كل علاقاتي مع الآخرين . باختصار ان الطريقة التي اخترتها لاعيش بموجبها في الحياة، كانت مرتبطة تماماً، وكل الارتباط، بهذا الاسم .!!

انني اتذكر الحادثة الاولى ــ فعندما سئلت في المدرسة عن اسمي، اجبت : عصويص .. وقبل ان اتابع، لمحت انقباضاً مريعاً على وجه الموظف المختص، وكأنه مصاب بمغص حاد . فتوقفت قليلاً ريثما يهدأ، وانا اتمنى لو استطيع ان اقدم له مساعدة ما . اذ لم يخطر لي ببال مطلقاً ان هذا التبدل الجسدي الطاريء، قد انتابه لمجرد ذكر : عصويص . ولذا تابعت بنية طيبة بعد ان زالت آثار المغص عن وجهه، فقلت، مستدركاً الاسم السابق : عصويص بن عكرمة ... ورأيت من جديد علائم القلق والضيق على وجهه . وانتظرته ريثما هدأ، وتابعت مكرراً للمرة الثالثة : عصويص بن عكرمة العضروطي . ولا اعلم بالضبط لماذا صرخ بوجهي .. ورأيته فجأة يقذف كل مافي معدته وامعائه .!!

انتابني حينئذ الخوف، فانخرطت في بكاء مرير .

باختصار : دخلت المدرسة الابتدائية . وطـــوال المدة الـــتي قضيتها في المدرسة، كان اسمي مصدر حزن والم كبيرين لي كنت مصدر سخرية .. وتحاشى جميع الطلبة صداقتي . كانوا يقطعون اسمي بطريقة مهينة، فيأخذون المقطع الأول ويلاحقونني به صارخين : عص، عص . عك، عك .. طي، طي . ولكنهم اكثر ما يستعملون المقطع الاخير : طي، طي .. وذلك للاختصار ولسهولة النطق . واحياناً يستعملون : عص .. عص .. عصاعيص !!

وقد حاولت باديء الامر ان اتجاهل .. ولكنني صرت اشعر، فعلاً، بنوع من الخزي والضيق . وكان من جراء ذلك انني عزمت نهائياً على قطع علاقاتي بالمجتمع، الا ماتضطرني اليه ضرورات الحياة . فلم اقم في المستقبل بأي نشاط اجتماعي، سواء كان خيرياً، اوسياسياً او دينياً او ثقافياً .. او اي نوع آخر من انواع النشاط، منعاً لتكرار الاسم، وتخلصاً من السخرية التي يثيرها ذكره .

لقد آن لي الآن ان اكشف عن السبب الحقيقي في لجوئي الى الصحف لتبليغكم عروض الحال . ان هذه الوسيلة تجنبني نظرات الاهانة والاستغراب !!

واشفق والدي علي، فأخرجني من المدرسة قبل ان اتم دراستي الابتدائية، فقبعت في البيت .. اقرا واتعلم بواسطة معلمين خصوصيين، دون أن اختلط بأحد .. الا القليل .!!

هذا الاستطراد، ضروري جداً، لكي اعطيكم منذ البداية

فكرة صحيحة عني ، وهذه الفكرة هي التي ستوضح لكم كثيراً من العروض المقبلة .

انني انسان مسالم ، لا ابتغي الشر والاذى لاحد ، ولا يمكنني — لاسباب سرية — ان الحق ضرراً بانسان ، حتى لو اردت ذلك . ان هدفي في الحياة ، ان اعيش بسلام ، ولذا فان عروضي لا تحمل اية رغبة في ايذاء فئة ما .. او فرد ما . على سطح الارض . كما انني لا اقصد بها ابداً الغض من قيمة حضارتنا الحالية ..

انني فقط ، مسجل امين .. ودقيق !!

وهكذا بتأثير العزلة ، اتخذت سلوكاً اجتماعياً معيناً لا يمت لي بصلة . اما الانسان الذي كنت اود ان اكونه ، والذي يمثلني على حقيقتي ، فقد اخفيته وحبسته في اعماقي .. فأصبحت بالتالي اثنين : الانسان الاجتماعي الذي يعيش بينكم .. والانسان الحقيقي الذي اعيشه وحدي ، دون اشتراك مع الاخرين .

وخلال السنوات التي قضيتها في البيت ، كنت اتقدم في مدارج العلم ، واحرز شهادة تلو الاخرى . باختصار ، ودون الدخول في تفاصيل شخصية : تخرجت من الجامعة ، واخترت بعدها التدريس ، وتعينت في درعا . ولما كان لدي فراغ كبير من الوقت ، وذلك بعد الانتهاء من الواجبات المدرسية .. فقد رايت ان اقوم بعمل مفيد ، فاتجهت لكتابة «عروض الحال» كنوع من التسلية ، ولقتل الوقت . وها انذا اقدم لكم اول عرض من هذه العروض .

فاذا لم تعجبكم هذه العروض ، ولم تساهم في تسليتكم ، فأن فطنتكم لن تعدم ايجاد الوسيلة لاستخدام الورق الذي كتبت عليه هذه العروض . في شتى الأغراض . حيث تستطيعون ان تلفوا بها ، مثلاً ، بعض السلع الخفيفة .. او لاستخدامها في المطبخ ، او في امكنة اخرى .. لا تخفى على ذكائكم العبقري .!! لانني ، فعلاً ، احتقركم جميعاً واتمنى لكم الدمار .

انتم الذين ستقرأون هذه ، لانكم السبب في كل ما مر بي من متاعب واهانات !!

لانني ، عدا اسمي الملعون ، احمل هيئة غير مقبولة ، كانت ايضاً مصدر السخرية والهزء .. وسأحدثكم عنها فيما بعد .

ولكنني لا اعلم لماذا تهتمون كثيراً بذلك ، وكأنني انا الذي خلقت نفسي ، او اخترت هذا الاسم .

ماذا يهمكم ان اكون في جمال النبي « يوسف » او ملكاً ملكات الجمال ؟ ! او في بشاعة القرد ؟ ! وأي اذى يلحق بكم من اسمي ؟ سواء كان : عصويص ، أو عصعوص ، اوفصغوص او بضروط .. أو ... اي شيء آخر ؟ !!

لا أعلم .. لا أعلم !!!

انني اكرهكم واحقركم ، فاذهبوا جميعاً الى الشيطان الجحيم .

ولا تقرأوا — اذا شئتم — اي عرض من العروض ، فأنا لا اهتم بكم على الاطلاق !!

(اعتذر عن هذه الكلمات الاخيرة وعن الكلمات التي ستقال فيما بعد . واقسم لكم انني منها براء . فالانسان الآخر ، الخفي الذي حدثتكم عنه ، هو الذي قال ذلك . لقد ثار فجأة ، وبدون مبرر ، فارتكب هذه الحماقات . وبما انني مسجل امين ودقيق فقد نقلت لكم مشاعره ، وتركته يقول مايريد)

وقبل ان اختم هذا العرض ، احب ان اعلمكم بان كلمة : « عرض حال » ليست من ابتكاري الخاص ، بل استعرتها من كونستانتان جيورجيو ، مؤلف من الساعة الخامسة والعشرون » ولكن جيورجيا بدوره ، لم يبتكرها ايضاً ، فان جميع الامم والشعوب تعرف هذا النوع من العروض انها مهنة معروفة من الجميع . ويسمون صاحبها : « عرضحالجي » .

ان مهمة العرضحالجي : التعبير الدقيق ، والنقل الامين . وسألتزم بدقة هذه الصفات . وبانتظار العروض القادمة .. تقبلوا فائق الاحترام والتقدير .

درعا — محمد حيدر

رحلة الضياع « بقية »

ولتنضح عينيك افاع
وصقور
وفراغ صحارى التيه
وشتاء العمر المكدود
واحفر واحفر
مادمت تكد لتبحث عن
اصقاع الفردوس المفقود

خليل الخوري

رباعيات الخيام

بين شاعرها ومترجميها

بقلم : محمد سعيد الكيلاني : بانياس

ما ادري ان هناك انسانا اشتهر بغير اختصاصه كما اشتهر الشاعر الفارس عمر الخيام . وصاحبنا انما هو علم من اعلام الرياضيات وعلم الفلك في العصور الوسطى . وله في كل منها تصانيف متعددة ترجم معظمها الى اللغات الاجنبية .

والمشهور بين علماء الرياضيات العالميين ان الخيام أحد المبدعين في هذا الفن ، وله في المثلثات والفلك وسواها من العلوم الرياضية قفزات رائعة . بل ان له نظريات قائمة بنصها وافقة عليها العلم الحديث .

والغريب ان الخيام على الرغم من الشهرة الذائعة الصيت له في هذا الفن ، فقد اشتهر بالشعر اكثر من اي شيء آخر . وطار ذكره على السنة العوام وكثير من الخاصة أنه شاعر ولم يدر الا القليل أنه علم من اعلام الفلك والرياضيات . وأن له نظريات استند اليها العلم في العصر الحاضر .

ورباعيات الخيام ترجمت الى اكثر لغات العالم الحديث وأما بالنسبة الى اللغة العربية فقد ترجمت من قبل احمد رامي والصافي النجفى والزهاوي والحيدري وسواهم ، لم يكن عامة الشعب العربي يدري باسم الخيام حتى طلعت عليه ام كلثوم عليه برباعياته . وكان رامي قد ترجم هذه الرباعيات الى العربية ـ وما كان متمكنا من اللغة الفارسية بشهادة الاستاذ الفراتي ـ فلم تلق اقبالا من الشعب .

الى أن غنت ام كلثوم تلك الرباعيات بعد الطبع بسنوات واستغل رامي استجابة الشعب لأم كلثوم في الرباعيات ، فطبع الديوان من جديد فتلقفته ايدي الشعب في البلاد العربية ولم يكن الفضل بذلك عائدا الى صحة الترجمة وضبط الفن بقدر ما كان عائدا الى رقة الصوت وجمال الأداء .

واشهد انني ما استسغت صوت ام كلثوم قط الا في القصائد والرباعيات .

ونحن اذ نتحدث عن رباعيات الخيام هنا ، فانما نتحدث مقارنين بين الحيدري والزهاوي والفراتي ورامي وعبد الحق فاضل .

قال الخيام :

(ان ذلك القصر الذي يطعن خاصرة الفلك ، وكانت الملوك تعفو جباهها على اعتابه ، رأينا على شرفته فاختة جاثمة تصيح : اين اين اين اين) !

فقال رامي :

تلك القصور الشاهقات البناء
منازل العز ومجلى السناء
قد نعب اليوم بأطلالها ...
يقول (اين المجد اين الثراء)

وقال النجفي :

ان ذاك القصر الذي زاحم الافق
وخرت له الملوك سجودا
هتف الورق في ذراه ينادي
اين من صيروا الملوك عبيدا

وقال طالب الحيدري :

ان قصرا قد ناطح الفلك دهرا
ولأعتابه الجماجم تحنى
قد رأينا احدى الفواخت تدعو
فوقه في هتافها اين اين ؟

وقال عبد الحق فاضل :

رب قصر زاحم الافلاك يوما منكباه
وملوك عفرت حر النواصي في ثراه
وقعت عيني على فاختة فوق ذراه
قعدت تندب اهليه وينعي من بناه

وقال الفراتي :

يا لقصر قد زاحم الفلك الدوار واستعبد الملوك العظاما
في ذراه ابصرت ورقاء تشدو اين اهلوه ؟ اين؟ ذاقوا الحماما

واذا نحن رجعنا الى الترجمة النثرية ، وجدنا ان رامي أسوأها احاطة بالمعنى بل تغييرا له .

فليس بالترجمة النثرية منازل العز ولا مجلس السناء . كما ان اليوم لا ذكر له في الترجمة البتة .

واما النجفي ، فهو ادنى الى الصحة من رامي . الا ان هذا التساؤل عمن صيروا الملوك عبيدا لم يرد في الترجمة . غير

ان الحيدري قريب من النجفي الا انه لم يراع تعفير جباه الملوك بل ذكر الجماجم فحسب .

وفاضل اتانا بالمعنى كاملا في ابيات اربعة بديل اثنين

واما الفراتي فهو قاب قوسين أو أدنى من المعنى الكامل أيضا : قصر زحم الفلك الدوار ، واستعبد الملوك ، والورقاء تنادي اين ؟ اين ؟

قال الخيام :

(كل ذرة على وجه كانت وجنة كالشمس ، وجبينا كالزهرة ، امسح الغبار برفق عن وجنة الحسناء ، فانه كان وجنة لحسناء أخرى) .

قال الزهاوي :

يايد الماشطات حسناء رودا
مشبها وجهها من الحسن زهرا
الغبار انفضيه عنه برفق
فلقد كان وجه حسناء أخرى

وقال النجفي :

كل ذرات هذه الارض كانت
اوجها كالشموس ذات بهاء
اجل عن وجهك الغبار برفق
فهو خد لكاعب حسناء

وقال الحيدري

كل جزء من الثرى ليس الا
وجه حسناء تسحر العين سحرا
فانفض الترب عن ثيابك في رفق
فهذا وجه لحسناء أخرى

وقال الفراتي :

غبار الثرى كم كان خد الشادن
زها وجبينا ضاء في الكون كالشعرى
ترفق اذا تجلوه عن خد غادة
فقد كان قدما خد غانيه أخرى

أما الزهاوي في بيتيه هذين فقد جانبه قرب المعنى في البيت الأول . فما ذكر وجنة كالشمس ولا جبينا كالزهرة ويسايره المعنى في الثاني مسايرة حسنة .

غير ان الصافي اقرب الى الترجمة النثرية في بيتيه هذين من الزهاوي :

واذا كان الزهاوي قارب في بيت وباعد في بيت ، فان الحيدري باعد في البيتين ، فهو يجعل كل جزء من الثرى وجه حسناء تسحر العين سحرا ، وهذا مالم يذكر في البيت وان كان يفهم . واما نفض التراب عن الثياب فيقابله مسح الغبار عن وجنة الحسناء . أرأيت الى مجانبة المعنى ياأخي القاريء ؟

والفراتي يأتينا بالمعنى كاملا لانقصان فيه . فغبار الثرى كان خدا وجبينا مضيئا . ويطلب الرفق اذا جلاه عن خد غانية ، لأنه كان - قدما - خد غانية حسناء اخرى .

قال الخيام :

(عادتي ان اشرب الخمر وان أمرح بها . وديني ان افرغ من الكفر والدين قلت لعروس الدهر : ماصداقك ؟ فأجابت : صداقي قلبك الجذلان) .

قال احمد رامي :

طبعي ائتناسي بالوجوه الحسان
وديدني حسو عتاق الدنان
فاجمع شتات الحظ وانعم بها
من قبل ان يطويك شمل الزمان

قال الزهاوي :

اشرب الراح مدمنا ثم اني
لاابالي كفراً ولا ايماناً
قلت للدنيا ماصداقك ؟ قالت
هو أن تستمر بي جذلانا

قال الحيدري :

تعودت التعاطي بالحميا
ودنت بهجر ايمان وكفر
عروس الدهر ماتهوين مهراً ؟
اجابت قلبك الجذلان مهري

وقال عبد الحق فاضل :

ان ديني هوان افرغ من دين و كفر
وحياتي هي ان احيا اخا سكر وبشر
قلت يوما لعروس الدهر مامهرك حقا ؟
فاجابت ياحبيبي قلبك الجذلان مهري

وقال الفراتي :

ديدني السكر والحبور وديني

عشق نفسي من كل كفر ودين

قلت للراح : ماصداقك ؟ قالت

فرحة من فؤادك المحزون

غريب امر رامي . فمازال يلح في الابتعاد عن أصل الترجمة كل مرة . ويعطي لنفسه العنان والخيال . لنقل ، ان : ديدني حسو عتاق الدنان هو : (عادتي ان اشرب الخمر) . فأين نجد : طبعي أتناسي بالوجوه الحسان ؟ اهي في قوله : وأن اسر بها ؟

ولكن الضمير في (بها) يرجع الى الخمرة لاالى الوجوه المفقودة من النثر - طبعا - .

ثم من أين يأتي رامي بقوله : فاجمع شتات الحظ وانعم بها .

من قبل ان يطويك شمل الزمان

ان النثر ليخلو كل الخلاء من هذا المعنى الذي اراده الشاعر .

غير ان الزهاوي يقول : (اشرب الراح مدمنا)مقابل : عادتي ان اشرب الخمرة وان اسر بها . ان هذا السرور لم يذكره صاحبنا . ثم : (ثم اني لاابالي كفرا ولا ايمانا) . أليس هو مايريده الخيام (وديني ان افرغ من الكفر والدين) .

ويبتعد الزهاوي ثانية عن الترجمة . فلا يطاوعه النظم على تسميه الدنيا بعروس الدهر ، خلافا للشعراء المذكورين جميعا - لأن عدا رامي طبعا - بينه وبين الترجمة الصحيحة عداء مستمر . مع ملاحظة ان الزهاوي قصر كلمة : قلت (للدنيا) في غير مجال قصر . فيقول :

قلت للدنيا ماصداقك ؟ قالت : هو ان تستمر بي جذلانا .

ان الخيام ماقال كذلك بل قال : صداقي قلبك الجذلان .

أما الحيدري فهو قريب الصلة بالنثر الى حد بعيد . غير انه لم يذكر سروره برشف الخمرة وان كان قد ذكر شربها .

والفراتي يأتي في الطليعة أيضا لولا بعض العثرات تعترض طريقه . فهو يبدأ بداية موفقة في بيته الأول . غير ان تسمية عروس الدهر بالراح ، ينئيه شيئا قليلا عن مكان الصدارة . مع ان المعنى واحد . وكذلك الفرحة من الفؤاد المحزون ، وانما هو : صداقي قلبك الجذلان . بينما عبد الحق فاضل اتانا بالمعنى كاملا ولكن في ابيات اربعة كالعادة.

اما النجفي فهو اروع المتسابقين في هذه المرة . لقد اتانا بالمعنى كاملا غير منقوص .

قال الخيام :

(انظر الى ذلك الكأس فانها جسم حبلت بالروح . اوياسمين حبل بالورد .

لا . لاغلطت . فالكأس من شدة لطفها ماء حبلت بنار سيالة) .

قال احمد رامي :

الكأس جسم روحه الصافيه

هذي السلاف القرقف الصافيه

زجاجها قد شف حتى غدا

ماء حوى نيرانها الجارية ...

قال الزهاوي :

انما الراح وهي في الكأس تبدي لمعانا روح بجسم تجلى

وكأن الكأس التي قد حوتها

ماءة بالنار المضيئة حبلى

وقال النجفي :

ضم جسم الزجاج روحا فحاكى

ياسمينا يحيط في ارجوان

لالعمري فالجام جامد ماء

ضم في القلب سائل النيران

وقال الحيدري .

الكأس بالروح حبلى

فانظر الى الكأس راني

كأنها ياسمين

يفتر عن ارجوا من

لا لا فليس صحيحا

ماقلته في بياني

وانما هي ماء . . .

اذيب بالنيران

وقال الفراتي :

عاطنيها فالكأس حبلى بروح

او بورد والجام من ياسمين

لالعمري حبلى بمحض لهيب

وهي من لطفها كماء معين

كان من الخير لأحمد رامي ألا يتعرض للخيام لئلا يهز عظامه في مرقدها الاخير ، وتصطك أسنانه غيظا وألما على مترجم ضعيف .

انه بهذا الجزء - كما هو شأنه في كل الأجزاء - ينسل لواذاً من معنى الترجمة .

اين الجسم الذي حبل بالروح ؟ او الياسمين الذي حبل بالورد ؟ اين الغلط ؟ وأين الكأس من شدة لطفها ماء حبلت بنار سيالة ؟

بينما كل هذا عند رامي : زجاجها شف حتى أصبح ماء حوى نيرانها .

وكذلك فان الزهاوي يجانبه التوفيق فلا حبل الجسم بالروح يذكره . ولا الياسمين وقد حبل بالورد يأتي به .

بل يذكر ان ماء الكأس حبلى بالنار المضيئة . وأين هذا من قول الخيام :

فالكأس من شدة لطفها ماء حبلت بنار سيالة .

ويأتي النجفي مناسبا في هذه المرة ايضا ، وان لم يذكر حبل الجسم بالروح . بل ذكر روح الكأس التي هي ياسمين يحيط في ارجوان وأتى بالفكرة كاملة عن الكأس المائي لشدة لطفها فحبلت بنار سيالة .

والحيدري يأتي بأربعة ابيات يجعل فيها الياسمين يفتر عن ارجوان . بينما حبل الياسمين بالورد . ويجعل الكأس ماء اذيب بالنيران . بينما الكأس حبلت بنار سيالة .

وأما الفراتي فيقارب المعنى مقاربة .

قال الخيام :

(اولئك الذين ثقبوا درر المعاني بفكرتهم ، تكلموا كثيرا في ذات الله . ولم يعرف احد منهم طرف الاسرار وانما هوموا أولا وناموا اخيرا) .

قال رامي :

اهل الحجى والفضل نور العقول
قد حاولوا فهم القضاء الجليل
فحدثونا بعض أوهامهم
ثم احتواهم ليل نوم طويل

قال الزهاوي :

قال اهل الحجى برب قدير
وأطالوا في ذاته التفكيرا
ثم لم يعرفوا حقيقته بل هذءوا أولا وناموا ... اخيرا

وقال الحيدري :

ان الذين تكلموا في ذاته
لم يستطيعوا كشف اي ستار
هم انما هرفوا وناموا بعدها
والكل يجهل مبدأ الاسرار

وقال الفراتي :

ان الاولى نوروا الدنيا بفكرتهم
خاضوا كثيرا بذات الله واجتهدوا
فلم يشم ومض برق منهم أحد
وبعد أن هوموا في حدسهم رقدوا

مازال رامي عند سوء ظن الخيام به . ومازال من الفارسية يهرف بما لايعرف . وكأن كل شيء عنده هو النظم بالعربية ، فأين ذكر اهل الحجى والفضل نور العقول ، وانهم حاولوا فهم القضاء الجليل ؟ واين واين .. ؟ ليته بقي شاعرا عربيا فحسب ، ولم يصبح شاعرا (عوبفسياً) . لأننا نريد الترجمة .

وهذا الزهاوي يقارب المعنى الى حد . وان لم يذكر انهم ثقبوا دور المعاني بفكرتهم . والحيدري يداني الخيام تقريباً في فكرته غير أنه لم يذكر تثقيب درر المعاني .

اما الفراتي فقد اتى بما في الترجمة النثريه بصورة كاملة . ويكاد البيت الثاني يكون جامعا مانعا كما يقول المناطقة .

قال الخيام :

(أنا وان لم اثقب جوهر طاعتك أصلا ، ولم أمسح غبار الخطيئة عن جبيني ، فلم أقطع رجائي عن اعتاب كرمك لانني لم أشرك بذاتك أحدا)

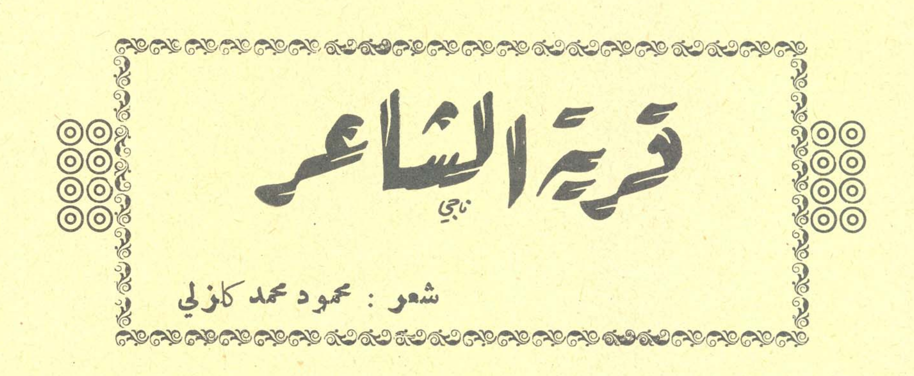
قال رامي :

ان لم اكن اخلصت في طاعتك
فانني فئت الى رحمتك
وانما يشفع لي انني
قد عشت لااشرك في وحدتك

قال الفراتي :

اذا أنا لم اثقب جواهر طاعتي
بهدبي ولم انفض غبار هناتي
فلست لدى اعتاب جودك يائسا

البقية على الصفحة (٣٣)



قريتي ترقد في حضن التلال
الف حلم ملء عينيها ببالي
الف أغنية حب حلوة
في مجاليها يغنيها خيالي

* * *

قريتي حسناء تستلقي على
مسرح الشمس.. على سفح الجبال
قدماها امتدتا في بحرة
ويداها في غدير من زلال
شعرها الاخضر تغفو فوقه
قصة الالوان سكرى بالجمال
ولياليها اساطير .. حوت
كل ماتحوي اساطير الليالي
حلقات الرقص في ردهاتها
عقدت تسخر من صمت الليالي
والغواني من نخيل راقص
لفت الخصر وضمته بشال
والمصابيح على أفنانها
تتدلى في ازدهاء ودلال
تستحم الانجم الزهراء في
مائها السارب في ضوء الهلال
والمجاديف لها أغنية
سكرت منها ارتعاشات الظلال

* * *

قريتي حلم خيال شاعر
نمنمته كف فنان مثالي
فهي لا تعرف ماالبؤس .. ولا
تعرف الطغيان في أحكام وال
لا ولا حقداً.. ولا كيداً.. ولا
حسداً يوغر أعماق الرجال
قريتي حب وأمن.. وندى
وصلاة تتعالى في ابتهال
لي كوخ في رباها أخضر
حسب نفسي رضيت فيها .. لي

دمشق - محمود محمد كلزي

التقمص السينمائي

— خالد حمادة —

— السينما موجهة لكي تسلي وتثير وتجعلنا نحلم . وهي فن جماعي . لانها نتيجة عمل مجموعة من الفنانين والفنيين وموجهة للجميع من شيوخ الى أطفال ومن صينيين الى ألمان . والسينما فن كامل لانها تعتبر مزيجاً تاريخياً ونهاية منطقية لكل الفنون الاخرى ، كالادب والموسيقى والتمثيل والتصوير . .

ولقداصبحت السينما فيهذا العصر جزءاً منحياة الشعوب، ففي كل ليلة يجلس الملايين من المتفرجين امام الشاشة السحرية يحلمون ويتأثرون فيبكون ويضحكون . ملايين من البشر يلجأون الى الصالات المظلمة تاركين متاعبهم اليومية ليعيشوا بعض الوقت في حياة جديدة مختلفة عن حياتهم ، وفي بلاد غير بلادهم .

ان سلوك وتصرف الجمهور في الفلم مختلف ، فمنهم من يبكي ويحزن ويتشبث بكرسيه من الخوف ، ومنهم من يبقى جامداً . والمتفرج يمكن ان يكون اما عاطفياً — داخلياً — واما عقلياً خارجياً . فالمتفرج العاطفي هو الذي يتخلى عن هويته الحقيقية او (الانا) من اللحظة الاولى للعرض ، ويزول وجوده المادي الواقعي ويقع في حالة من اللاشعور اليقظ ، لايخرج منها الا اذا تضايق بجار يسعل او يتحرك ، او اذا تألم ألماً فيزلولوجياً اواذا كانت ادوار بطل الفلم سلبية لاتوافق شخصية المتفرج الحقيقية ، ويدفع هذا النوع من المتفرجين ثمن كرسيه لكي يتخلى عن شخصيته اليقظة الواعية ويدفع بكل نفسه ليعيش في حوادث الفلم متقمصاً شخصيات وادوار القصة المعروضة ، ففي اثناء منظر غرامي لايبقى المتفرج العاطفي ساكنا في كرسيه متابعاً الصور والحركات ومصغياً لكلام المتفرجين بل يتجرد عن شخصيتهالحقيقية متقمصاً احد الادوار الموافقة او مجموعة منها . ويعيش تماماً في ذلك الدور ، ويعمل كما يعمل البطل (ويتأثر بتأثره حتى انه قد يفتح شفتيه ليتلقف قبلة البطلة الشهية ؛ فهو يشعر بجميع العواطف المتبادلة ويعيش حوادث المنظر ويصبح الفلم بالنسبة للمتفرج حلماً حيث تضيع شخصية الحقيقة الواعية او الانا لتظهر متقمصة شخصيات ابطال القصة .

وللصورة السينمائية في هذه الحالة تأثير غير مباشر تأثير بالتقمص . فالمتفرج العاطفي لايرى المناظر الطبيعية الجميلة ولايعتبر لحظات القصة حسب احساساته وعواطفه الطبيعية الحقيقية، بل يرى هذا المنظر ويعتبر تلك اللحظات بروح الممثل الذي تقمص شخصية .

وتؤثر الصورةالسينمائية على المتفرج الخارجي (العقلي)الذي يراها بمنظار خارج عن النفس، فهو واع دوماً لادراكهويتابع الفلم بالنظر ولا يتقمص شخصيات الادوار التي على الشاشة مهما كانت قوتهم وتأثيرهم . وهو لايذهب الى السينما ليعيش ما يراه وانما ليلاحظ ويدقق — انه يلاحظ شخصيات وادوار الممثلين ويتذوق مقدرتهم على التعبير والالقاء والتمثيل ويمكنه في اشد المواقف رهبة . ان يميز اناقة الاسلوب ومهارة الاخراج وقد يضحك ملأ شدقيه من المناظر المؤثرة تلك التي ابكت المتفرج العاطفي .

ولايمكن ان يكون المتفرج عاطفياً كلياً ولا عقلياً دوماً فهو في اكثرالاحيان بين هذا وذاك والمتفرج العاطفي يلتهم الصور الناطقة مفتشاً عن المتعة والتسلية والاحساسات السريعة وقتل الوقت وهذا النوع من المتفرجين يضم الاكثرية الساحقة من الناس الراغبين بالسعادة الوقتية وبالصدمات العاطفية والهروب من واقعهم وهذا يفسر لنا وجود هذه الافلام المحبوكة بالجملةالتي تتلاعب بعواطف الجماهير الجاهلة اثارة وتهيجاً هذهالافلامالمخدرة التي تجعل المتفرج يحلم اعذب الاحلام اثناء العرض .

ويجب ان لايكون الدور سهلاً وعديم التنوع لدرجة تمكن المتفرج من امتلاك زمام الدور والسيطرة عليه ورؤية من الخارج (بدون تقمص) ، ففي هذه الحالة ينقطع الفلم عن تقديم الاحساسات ، ويترك المتفرج بارد العواطف ، ولغير هاتين الصفتين الصحة والبساطة يجب ان ينصف الفلم بصفة ثانية وهي الاخلاق ، اخلاق جماعي يتطلبه الجمهور اقل ضرورة .

والقبلة في الافلام تعطينا مثالاً ، فهي في بعض المجتمعات مستهجنة اخلاقياً الا اننا نستسيغها بل ونصر على وجودها في الافلام .

اخلاقية السينما :

ان الشرائع الاخلاقية التي تطبق على القصص السينمائية

لاترتبطها صلات كثيرة مع الاخلاق الاجتماعية السائدة في الحياة الواعية . فالنظم الاخلاقية في السينما هي اخلاق الافلام والاساطير ، فارتكاب البطل اعمالاً تتطلبه القصاص قانونياً لاتكون مستهجنه دوماً لدى المتفرج الا اذا كانت الضجة تقوم بدور ايجابي . فقتل البطل لصاً وان كان يستهدف القصاص القانوني في الحياة الواعية لايؤثر على تقديرنا للبطل في الفلم ففي فلم (نهر لاعودة منه) مثلاً نشعر بعطف نحو البطل مع انه قاتـــل وملاحق قانونياً . ولكن اذا تجاوزنا النظم الاخلاقية العادية للسينما فاننا نخاطر بجعل المتفرج يترك تقمصه وندفعه خارج احلامه فيثور ضد الفلم او يحتفظ له بموجدة .

وفي فلم اضواء المدينة لشارلي شابلن يتذكر من شاهد هذا الفلم ان شارلي يلعب دور الفتي ويملك سيارة فاخرة وفي احد المناظر لايجد معه مايدخنه ويلفت نظره عقب سيكار شاعل على الرصيف ، فينزل من سيارته ويزاحم الفقير في التقاطه ، وينصرف بسيارته مسروراً يدخن بقية السيكار .

وطبعاً لن يرتاح ضمير المتفرج لعمل شابلن فهو يشعر لتقمصه شخصية شابلن بانه اقترف اساءة اخلاقية لمزاحمته الفقير على عقب السيكار فهو بهذا قـد اساء الى رجل فقير وشعوره باقترافه هذة الاساءة تجعل متابعة الفلم بدون لذة ولا ينسى ذلك المنظر لانه لن يستطيع ان يكفر عنه . ولقد اراد شابلن ولا بد بهذا المنظر الهادىء ان يوضح بان العادات المستأصلة لاتزول عند الفقير الذي اغتنى الا ان المتفرج مع الاسف لم ير هذا كما يراه المؤلف والمخرج الذي هو شابلن نفسه . لتسلط المنظر عليه داخلياً (عاطفياً) وليس خارجياً (عقلياً) .

السينما والحياة اليومية :

ان التقمص يتأثر ايضاً بعوامل خارجية طارئة ، كالظروف السياسية والاحوال الاجتماعية والاقتصاديـــة واتجاهات العصر .. الخ .

الادوار الايجابية والادوار السلبية :

من المؤكد بأن المتفرج العاطفي لا يتفحص شخصية اي دور من الادوار وانما تلك التي تقدم له احساسات ايجابية (اي ملائمة لشخصية الحقيقة الشعورية واللاشعورية) ، ولهذا وجب ان يأخذ المتفرج نصيباً من الواقع ، من وقائع منتجة طيبة واخرى شبه مهدمة وقائع تضيف على الفـــلم الغاية والفائدة والاسس . ولهذا ايضاً نجد اكثر الافلام السائدة والرائجة تتناول مواضيع عن اللص والشرطي ، المحسن والمسيء ، الحب والكره . الحرب والسلام ومشاركة الجمهور لوقائع مثل هذه المواضيع بأحاسيسه وعواطفه اكيدة في اكثر الاحيان .

لانه اذا لم يشارك المتفرج بعواطفه لوقائع الفلم فلن يجد اي منفعة شخصية . وفي انتقائه للفلم سيكون متأثراً بما سمع عن الفلم وبما يعرفه عن الممثلين وعن طبيعة عواطفهم ولما شاهدوه قبلا من ادوارهم .

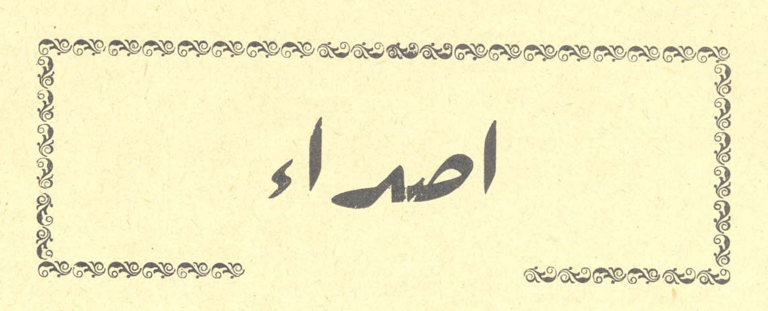
ولا بد ان نلاحظ بأن الادوار السلبية والايجابية ليست محصورة بما تقدم فالتقمص يدخل المتفرج في الادوار الايجابية شيئاً من ذاتيته وفرديته فهو في حياتهم ويكشف طبائعهم ولذا وجب ان تكون هذه الادوار صحيحة نفسياً لا اختلاق فيها ولا تناقض فكل واقعة وكل جملة يجب ان تنساب طبيعة منطقية موافقة لخوالج النفس .

وتكون الادوار السلبية للمتفرج العاطفي عالماً خارجياً بعيـداً عنـــه حوادثه الطارئة وتهديداته للسعادة ، للحياة ، للامان ، للنجاح ، .. الخ . فيقف امام هذه الادوار موقف المتفرج العقلي الواعي . ولما كانت عواطف المتفرج اقوى من تفكيره (في السينما) فليس من الضروري اعطاء الادوار السلبية حقيقة نفسية عظيمة لأن انطباعات الشر تتضاعف بالحوادث المفاجئة او بوقائع غير عقلية .

ومن الضروري ان تتصف الادوار الايجابية بصفات اخرى غير صحتها النفسية فالعواطف والحالات الروحية ووجهات النظر واهداف الحياة يجب ان تكون بسيطة واصلية وطبيعية وذلك لكي يتمكن المتفرج من كشفها وادراكها ، وان لاتتجاوز سعة ادراكه او ان تعدم عواطفه .

ولكي يحقق التقمص لدى المتفرج احاسيس ايجابية يجب ان نجد فيه احاسيس مما لانجده في الحياة اليومية ، كالسعادة والفن والمخاطرات ، البطولة وهي كلها احاسيس ايجابية . ففي اثناء الحروب وقبلها ، يقدم الفلم الحربي للناس الشعور بالبطولة حتى انهـــم يحسدون الجنـــود الموجـــودين في الجبهة ، ولـــكن في الوقت الذي قدمت فيـــه السيـــنما صورة حقيقيـــة عـــن احـــوال الحـــروب أصبح الشعور

البقية على الصفحة « ٣٦ »



اصداء

تطالعني من وراء النوى
أعاصير مرت بدرب الهوى
واطلال لحن بعيد القرار
برت نايه رعشات الجوى

. . .

وتعصف في خاطري ذكرياتٌ
وتحنو على لوعتي امسياتٌ
فأشعر أني احس الحياةْ
وان حياتي رؤى في رؤى !..

. . .

واذكر اني قطفت النجوم
وجمدت في مفرقيك القمرْ
ووسدتك الفجر ارجوحة
تجاذبها ليلنا والسحرْ !..

. . .

واذكر ان شفوف الغمامْ
طوت ضحكات لنا في الظلامْ
وان حديث المياه الرتيبْ
تعثر في بوحنا المستهامْ ! ..

. . .

واذكر موعدنا الاولا
وكيف اردتدينا الدجى مخملا
وسرنا نوزع احلامنا
على طائر راح او اقبلا !
واذكر اني تبعت اللقاء
وارسلت في خطوه بالنداء
وأني سرحت خيوط الدجى
لئلا يغير عليها الضياء ! ..

★ ★ ★

فهلا رأيت معي ماأراه
واشرق في مسمعيك صداه
وعشت من الحب في ذكره
فأعذب مافي هوانا رؤاه

★ ★ ★

تطالعني من وراء النوى
اعاصير مرت بدرب الهوى
وأطياف لحن بعيد القرار
برت نايه رعشات الجوى

دمشق   فؤاد العادل

التربية المهنية

نقولا بنوت

تتجلى الاختلافات الهامة بين الفكر الفلسفية الاساسية في معني المهنة . وذلك لاتساع الفجوة بين ماتعبر عنه الافكار الفلسفية من اصطلاحات عامة بعيدة عن الحياة وبين التفاصيل العملية للتربية المهنية وتنتهي المعارضات هذه بين العمل والراحة والنظري والتطبيق الى التفريق بين التربية المهنية والتربية الثقافية .

لقد لازمت التربية الثقافية الحرة افكار الراحة والترف والمعرفة النظرية الخالصة والنشاط الروحي الذي لايشمل الاستخدام الفعال لاعضاء الجسم حتى اصبحت الثقافة مهرباً للناس . وسلواناً يخففون عن انفسهم اضطرارهم الى الخدمة .

واجتنابا للفكرة الشائعة بان كل تربية تدور حول المهنة انما هي عملية ضعيفة ، يمكن تحديد معنى المهنة بما يلي :

لايخرج معنى المهنة عن انه توجيه ذو معني واثر في فعليات الحياة . فليس نقيض المهنة الراحة او الثقافة بل يعيضها السير بغير علم ولا هدى ، وتحكم النزوات ، وقلة تراكم الاعمال في خبرة الفرد .

هذا من الناحية الشخصية ، اما من الناحية الاجتماعيه فنقيضها التظاهر الفارغ والاعتماد الطفيلي على الاخرين .

فالمهنة بالمعنى الصحيح تشمل نمو الاستعداد الغني لدي الفرد والاستعداد العملي والمواطنة الفعالة . وهنا يجب ان نحذر من حصر فكرة المهنة في الاعمال التي تنتج السلع المادية فقط ومن الفكرة القائلة بان المهن موزعة بحيث لا يكون للفرد سوى مهنة واحدة . فمثل هذا الاختصاص الضيق مستحيل .

مكانة الاهداف المهنية في التربية

لاينكر ان للمهنة مكانة مرموقة رغم ما لحق بها من احجاف وذلك للاسباب التالية :

١ – ان المهنة هي التي تقيم التوازن بين استعداد الفرد الخاص وخدماته الاجتماعية . ففتاح السعادة هو ان يكتشف المرء العمل الذي يصلح له ويجد الفرصة لمزاولته . وليست معنى المهنة الصحيحة سوى وجود المجال الكافي لاستعدادات الفرد فيعمل باقل ما يمكن من العناء واكثر ما يمكن من الراحة .

اما من جهة اعضاء المجتمع الآخرين فهذا معناه ايضاً انهم يحصلون من الفرد على احسن خدمة يستطيع اداءها نحوهم .

وعلى هذه الفكرة يعلق البعض ويقول مستشهداً بالتاريخ : لابد في المجتمع من وجود طبقة مستخدمة تسيرها الطبقة الرفيعة . فلولا العبيد لما قامت حضارة اليونان ولا أهرامات مصر . وعلى هذا نجيب ان الكمية قد تغني احياناً عن الكيفية ولكن لو وجه نشاط هؤلاء العبيد الذين سخروا لهذه الاعمال حسب ميولهم لاتوا بالعجائب . ولربما بلغت عجائب العالم السبعة اضعافا مضاعفة ولربما قيض للكثير منهم ان يأتي بالمعجزات فيؤله ويقام له نصب بين الالهة المتعددة التي عبدها الاقدمون .

وعلى هذا فالرق يمثل بصورة جلية خسارة للجهد وللمجتمع لانه يمثل النفور الذي يحدث للفرد حينا لايجد نفسه في العمل الملائم له بل مكرها على القيام به .

٢ – ان المهنة عمل متواصل ذو غرض ولذلك فالتربية عن طريق الجهد تجمع في ثناياها بين العناصر المؤدية الى التعليم مالا يتوافر في اية طريقة اخرى : فهي تظهر الغرائز والعادات وتستغلها وهي تساعدت على التربية الجسمية والحركية . وهي عدوة لتقبل الاشياء بصورة منفعلة . وهي اخيراً بحكم الضرورة مبدأ منظم اذ على اساسه تنتظم المعلومات والافكار ابتغاء المعرفة والنمو الفكري .

فهي التي تجمل الخبرات والحقائق والمعلومات على اختلافها تنتظم في سلك واحد او فيما نسميه منظومة استناد واحدة Syaléiue be référeuce . لذا نرى ان كلاً من المحامي والطبيب والعالم يرى الامور دوماً من زاوية مهنته . ويجد في حرفته ما يدفعه الى ملاحظة جميع الاشياء المتعلقة بعمله ووصلها ببعضها . ومثل هذا التنظيم حيوي لان له علاقة بحاجات الانسان .

٣ – لما كانت المهنة عملاً متواصلاً كانت التربية ايضاً عملية مستمرة . والرأي الذي يزعم أن الانسان يكتشف العمل الذي يختاره لحياته دفعة واحدة وفي وقت معين هو رأي تعسفي . فالفرد الذي اكتشف في نفسه ولعاً فكرياً واجتماعيا بالاشياء المتعلقة بالهندسة مثلا وقرر ان يتخذ الهندسة حرفة له في الحياة انما يخطط في قراره نفسه هذا المجال الذي سوف يوجه اليه نموه فيما بعد . ويشبه اكتشافه لمهنة هذه اكتشاف كولمبوس لامريكا حين وصل الى سواحلها لاغير . ويبقى عليه ان يقدم في المستقبل باكتشافات مفصلة واسعة النطاق .

نظرة خاطفة على مفاهيم التربية الثقافية والتربية المهنية

ان من وضع الحجر الاساسي لفلسفة التربية هو افلاطون . ونقطة الانطلاق لديه هي تنظيم المجتمع وانسجامه . فكان افلاطون وانصاره يحتقرون المواد العملية ويقيمون وزناً عظيماً للمواد النظرية وقد شرح افلاطون في جمهوريته الطريقة المثلى لاعداد طبقات الضاع والجنود والفلاسفة .

والتفرقة التي حدثت بين الثقافة والنفع ترجع الى ظروف وملابسات اجتماعية خاصة . فقد نشأت في بلاد الاغويق حيث كان المجتمع يتكون من طبقتين : السادة الاحرار والعبيد الارقاء . وبقيت بدور التفرقة هذه موجودة حتى ايامنا رغم التطورات التي مرت عليها .

الا ان هذا لايمنع ان تكون التربية القديمة مهنية في الواقع ولوادعت ترفعها عن ذلك باسم فكان يقال انها نفعية بالنسبة للطبقة العامة لذا لم تكن لتسمي تربية وانما تتلمذاً تحت اشراف استاذ او بالاحرى انها تعلم بالخبرة . اما بالنسبة للطبقات الحاكمة فالتربية ليست نفعية لانها لاتجزي صاحبها رزقاً معلوما او قدراً معيناً من المال وهى ليست مهنية لانها لاتؤدى لاشخاص معينين او تتطلب عملاً يدوياً . لذا فان مهمة الجراح والطبيب ظلت معدودة في مثلى منزلة الحلاق والحداد والنجار في حين ان مهنة الشريف الحاكم الشريف بقيت ارفع من ان تسمى مهنة .

على اننا اذا تعمقنا قليلاً في هذه النقطة لاتضح لنا التناقض والتستر الذي كان يلجأاليه رجال الحكم في الواقع عن سواهم ولبان لنا ان اعمالهم في الحكم كانت مهنة في جوهرها . فمهنة ادارة الشؤن الاجتماعية سواء أكانت سياسية ام اقتصادية ، ابان الحرب ام السلم انما هي مهنة كغيرها من

المهن . والمدارس العالية أنما وجدت انذاك من اجل الاعداد لهذه المهن . والعمل المدرسي على ضيقه كان جزءاً من التلمذ الذي يقصد به تعليم مهنة من المهن . حتى ليمكن القول ان معاهد التعليم العالي قد حملت من حيث لاتدري على العمل في سبيل الاعداد لهذه الحرف – ولا يزال حتى الان مايسمى بالتعليم العالي في بعض البلدان وفقاً لطبقة معينة من الناس . ولا تزال حتى ابواب بعض الجامعات تقفل في وجه البعض لنقص في الدوام او لنقص في الحد المعين من العلامات او لان الطالب قد تخرج من مدرسة صناعية او عملية . ولا يزال حتى الان المتخرج من الكليات النظرية يتطلع الى زميله الذي تخرج من معاهد عملية نظرة استصغار واحتقار .

ونحن اذ لانزال نقول بوجود مهنة ثقافية فذلك لاننا نتناسى ان لم نتجاهل ما في المهن الاخرى من احتمالات ثقافية ولاننا اعتدنا بحكم التقاليد على هذا التفريق . فتقاليدنا الخاطئة التي ورثناها وما زلنا قابعين فيها هي التي لاتخلع اسم المهنة الا على الاعمال التي يكون فيها الانسان مسؤولا عن عمله امام رئيس معين بدل الرئيس الاعلى الذي هو المجتمع . ان قيمة المادة المدرسية لاتقاس بمدى ما تحمل من وجهات نظر متعددة وسفسطة في الكلام وانما تقاس بمدى مساعدة الفرد على ملاءمة نفسه في مواقف الحياة المختلفة وعلى مدى الفائدة التي يقدمها للمجتمع .

فاذا كانت الاعتبارات التاريخية والتقاليد هي المسؤلة عن التفرقة بين التعليم المهني والتعليم الثقافي فيمكن القول ان التربية لايمكن ان تتصف بالحرية اذا لم تمكن الطالب من كسب قوته بنفسه ومن المحافظ على كيانه الاقتصادي في المجتمع .

ومن هنا كانت التربية المهنية عاملاً على التحرر . وفي هذا يقول هدايتهه Whitehead « لا توجد تربية مادام هناك تفريق بين العمل والفكر » ويقول ابن خلدون ايضاً : يجب ان يرتبط الفكر باليد

الاسباب الظاهرة لتوطيد التربية المهنية

تعدد هذه الاسباب الى خمسة .

١ – ازدياد احترام الجماعات الديمقراطية لكل ماله علاقة بالعمل اليدوي اليدوي والاعمال التجارية واداء الخدمات الملموسة للمجتمع . فبالرغم من ان الناس ما زالوا يعجبون بمن يستطيع ان يعيش عيشة البطالة والفخفخة ويحسدونه ، الا ان الشعور الاخلاقي اصبح يستنكر هذا النمط من العيش وذلك لان المسؤلية الاجتماعية كشفت عنها الستار وظهرت الى الوجود وفرضت نفسها فرضاً .

٢ – لقد زادت اهمية المهن بعد الثورة الصناعية التي قلبت وجه العالم والتاريخ ولم نعد نعتبر الصناعة والتجارة محلتين وانما دخلنا في الاطار العالمي واخذتا تعملان لعدد من الناس يزداد يوماً بعد يوم ونجم عن ذلك اعطاء المسائل المتعلقة بالحياة الصناعية المحل الاول من الاهمية في الدراسة . اذ انه ليس من الممكن ان تحدث تطورات اجتماعية واسعة دون ان تغير في ميدان التربية مشاكل جديدة ودون ان ترغمها على التطور .

٣ – لم تعد الصناعة عملية قائمة في جوهرها على الخبرة والحساب التقريبي ، يتوارثها الابناء عن الآباء بل اصبحت ذات اسلوب فني ، هندسي رياضي ، فيزيائي ، كيميائي ، ذري ان شئتم . فالانقلاب الصناعي وبالتالي الاقتصادي وضع امام العلم عدة مشاكل للعمل . وبذا اصبحت الاعمال الصناعية تحتوي في جوهرها على مفاهيم فكرية واحتمالات ثقافية لم تتوفر من قبل .

لذلك اصبحت الحاجة ملحة الى نوع من التربية يطلع فيها العمال على الاسس والنتائج العملية والاجتماعية لاعمالهم . ومن ثم فان فقدان هذه هذه التربية يضع العمال في منزلة الآلات التي يستغلون بها .

ففيما مضى كان العامل يكيف آلته وفقاً لرغبته اما الان فقد اضطر الى ان يكيف نفسه وفقاً لآلته . لذا فان عبء تحقيق الامكانيات الفكرية الموجودة في العمل يلقى على المدرسة .

٤ – ان طلب المعرفة في العلوم اصبح تجريبياً قليل الاعتماد على الادب والرموز لذلك غدت مادة الاشكال الصناعية لاتقف عند تقديم المحتويات العلمية بل تعد فرصاً لتعرف الاساليب التي بها تكتشف المعرفة

٥ – ان علم النفس الحديث يؤكد الاهمية القصوى للغرائز الفطرية من حب للاستطلاع وميل للاختبار والتجربة . فالتعلم لم يعد تنظيم شيء مهيء سلفاً يدعى العقل بل الفعل نفسه اصبح تنظيم الاستعدادات الاصلية . فاللعب عند الصغار يتحول الى عمل عند الكبار وذلك من حيث نمو الاعمال النظرية نمواً تربوياً .

بعض المبادىء العامة للتربية المهنية في المدارس

لابد قبل ذكر هذه المبادىء من التميز بين الاصطفاء المهني والتوجيه المهني فالاصطفاء المهني يتلخص في انتقاء فرد يصلح لعمل معين . في حين ان التوجيه المهني صد انتقاء نوع العمل الذي يناسب قدرات كل فرد .

فالاول يهدف الى صالح الانتاج وزيادة الارباح الصافية في حين ان الثاني يعمل لصالح الفرد ولتزويده بانسب عمل له وبالتالي لتحسين نوع الانتاج.

وهمنا هنا بحكم عملنا التوجيه المهني وليس الاصطفاء المهني ، لاننا مدربون وعلينا الاهتمام بالطلاب وليس بعمال لذا لابد من ذكر بعض المبادىء العامة التي تفيد في التوجيه والتي يمكن ان تعتمد عليها المدرسة .

١ – يجب ان حذر من نقل الظروف الصناعية الراهنة الى المدرسة وذلك لان المشكلة ليست جعل المدرسة ملحقات للصناعة والتجاره وانما استخدام الوسائل الصناعية لجعلها مركزاً حيوياً متصلاً بالمجتمع عن طريق هذه الوسائل والآلات .

ان الخط الذي ينجم عن المحاولة الاولى اي نقل الظروف الصناعية الراهنة الى المدرسة هو ان تصبح التربية اداة لتثبيت النظام القائم في المجتمع الصناعي دون ان تعمل على تغييره وتبدله . ومعنى التعديل هنا هو وجود مجتمع يكلف كل فرد منه عملاً يزيد في قيمة حياة الاخرين ليجعل الروابط التي تجمع الافراد فيا بينهم ملموسة اكثر من ذي قبل وبذلك يحطم مابينهم من حواجز وابعاد وفروق طبقية .

وكذلك يعني التبديل ايضاً خلق الظروف التي تجعل كل فرد يقبل على عمله اقبالاً رشيداً دون اكراه .

فالنجاح والاخفاق يتوقفان على تحقيق هذا التعديل وعلى الاخذ بالاساليب التربوية التي تؤدي اما الى الاول واما الثاني . ومعنى هذا اننا نستطيع بالتالي ان نقيم في المدارس صورة انعكاسية لذلك النوع من المجتمع الذي ننشده ثم نتوصل اليه عن طريق ما نبذله من جهد .

ان اعظم ما يعتور النظام القائم ليس ما ينجم عنه من فقر وآلام فحسب وانما ما ينجم عنه من اكراه الناس والنشىء على العمل في مهن لايرغبون بها . ان مهناً هذا شأنها لاتقم ان تغير في اصحابها الكره وسوء النية والميل الى الاهمال والهرب من الواجب .

ولاتقف الامور عند هذا الحد بل انها تؤدي بالتالي الى الانقسام بين الطبقات ودعم ما يمكن يسميه ديوي بالقدرية الاجتماعية التي تفرض على طبقة من الناس . ان تظل مستخدمة اجيرة ان المقدرة الفنية في الصناعة

هي الي تعوزنا وهي تعوزنا لامن اجل تحسين النوع وتقليل الكلفة فحسب وانما من اجلى تأمين رفاهية الانسان وسعادته في عمله كانسان دون أي اعتبار آخر .

ومهما يكن من امر فهناك تضييق وحصر للذكاء في النظام القائم مادام العمل لايحسب النتائج الاجتماعية . ولا مناص من هذا التضييق مادام الدافع بالنسبة للمستخدمين الربح والسلطان وللطبقة لمستخدمة الحصول على الدراهم الذي يرد عنهم غائلة الجوع والموت .

اذن تجحح كل تلبية خطة بربوية تبدأ بالنظام الاقتصادي القائم الى التسليم بما في هذا النظام من الفوارق والضعف وبذلك تغدو هذه التربية آلة لتنفيذ ما سميناه بالقدرية الاجتماعية المتحدرة الينا من عهد الاقطاع .

اما التربية التي تسلم بالمعنى الفكري والاجتماعي للمهنة فانها تنطوي على تعليم الاصول التاريخية للظروف الحاضرة وعلى تدريب علمي يمد الفرد لاستعمال مواد الانتاج ووسائله استعمالاً مشجعاً بالذكاء والفطنة بحيث يلمس من سيكون عاملاً في المستقبل المشاكل اليومية ويعرف مختلف الاساليب المقترحة لتحسينها .

ان مثل هذا النوع من التعليم يزيد مقدرة العمال على التكيف المستمر وعندئذ لا يستسلمون الى مصير محتوم اضطروا اليه اضطراراً ويحتسبون انه كتب عليهم منذ الازل .

٢ – لايكفي تهيئة الطفل وتمكينه من النمو والنضج بحرية اذ لابد ايضاً من ملاحظة حاجات المجتمع الذي يعيش فيه الطالب وامكانياته .

فاذا كانت التربية في صميمها وجوهرها يجب ان تتركز على التلميذ نفسه فعليها ايضاً ان تهتم بالاسباب التي تتعلق بها حياة القطر الذي يحيا فيه الطالب فاذا لم تتحقق هذه الغاية الثانية فان الافراد والمجتمع يتعرضون لازمات نفسية واجتماعية واقتصادية شديدة وهكذا فان التوازن والانسجام بين مطالب التربية والمهنة تضع امامنا مشكلة ليست قومية فحسب وانما دولية .

فالتربية تنظر بطبيعتها الى المستقبل . واستشفاف المستقبل اصبح اليوم اشد ضرورة من اي وقت مضى نظراً للتطورات الهامة التي تجري كل يوم في عالمي السياسة والاقتصاد . لذا يجب ان يهدف التعليم الى تهيئة الفرد لممارسة مهنة الى جانب العلوم الاخرى التي تجعل منه مواطناً حراً صالحاً . ان هذين النوعين من التعليم اللذين كانا يعطيان منفصلين لافراد طبقات مختلفة من المجتمع اصبح من الواجب اليوم ان يوصفا تحت متناول يد الجميع .

٣ – عقد في باريز سنة ١٩٥٠ مؤتمر تحت اشراف فرع العلوم الاجتماعية لليونسكو حضره المختصون بشؤن التعليم والصناعة الجديدة غايته ايجاد السبل التي يحقق التوازن والانسجام بين مطالب التربية ومطالب المهنة. واتفق المؤتمرين على النقاط التالية .

آ – ان التعليم المهني لايعني بحاجات المستقبل المهنية الفنيه .لذا لابد من تحديد عدد المدارس والمعاهد الفنية مع تحديد نوعها وطبيعتها . ولا يمكن ذلك الا بعد الحصول على احصاءات دقيقة عن الحاجات الحاضرة من اشخاص مسئولين .

ب – ان التعليم العالي لايؤمن الخبرات العملية الحديثة اللازمة للعيش في بيئة صناعية . اذ ان هذا التعليم يوجه نحو جمع المعلومات النظرية من الكتب اكثر من اتجاهه نحو التعليم العملي . لذا لابد من ايجاد مدارس او معاهد فنية جديدة بخلق الاشخاص القادرين على سد حاجات الصناعة في المستقبل وللوصول الى هذه الغاية يجب اتباع مايلي :

١ – تجهيز المعاهد الفنية حسناً ووضع ادارة حكيمة عليها .

٢ – اختيار الهيئة التعليمية بحيث لاتقل قيمتها عن قيمة بقية الهيئات التعليمية .

٣ – تسهيل سبل الانتساب الى المعاهد الفنية .

٤ – تيسير التعليم العالي لطلاب المعاهد الفنية كما هو متيسر لطلاب المدارس العامة .

جـ – ان الثقافة للتعليم المهني الحالي غير كافية . لذا لابد من ان يدخل على برنامج التعليم انواع من التعليم العملي يتفق وحاجات العصر ويطابق شروط الحياة في المجتمع الصناعي ولذلك يجب :

١ – تشجيع النشاط المشترك بين الطلاب ليتعودوا اتقان العمل المشترك الى جانب العمل الفردي

٢ – قيام العاب ومخيمات واوجه اخرى من النشاط في الهواء الطلق.

٣ – تشجيع الطلاب على التنقيب الشخصي والسعي للسنين في الكشف والاستنباط

٤ – تهيئة معامل تسمح بممارسة اوجه النشاط العملي ، على ان تعتبر اوجه النشاط هذه ثانوية بل تكون أصلية في التعليم العام .

د – ان التعليم المهني معرض لان يصبح تخصصاً في مهنة معينة مع ان عالم الصناعة يتطور بسرعة فائقة . لذا يجب ان يكون التعليم الثقافي جزءاً اصيلاً من التعليم في المعاهد الفنية وهذا يتطلب :

١ – ضرورة الاهتمام باختيار الهيئة التعليمية وتأليفها .

٢ – ضروره توزيع التعليم الثقافي على ان يحتوي هذا التعليم بعض المسائل الاقتصادية والاجتماعية كتطور بعض الصناعات وتاريخ الحركة العمالية الى جانب اتقان اللغة الاصلية وبعض اللغات الاجنبية والرسم والفنون الاخرى .

٣ – العمل على تهيئة تعليم فني وثقافي معاً للفتيان والراشدين .

وقد نص المؤتمرون ايضاً بخصوص التعليم الفني للفتيات والنساء على ضرورة المساواة بين الرجل والمرأة في التعليم حيث يحتوي تعليم النساء ايضاً على تعليم فني يسمح لهن بتحسين وضعهن الاقتصادي . على انه يجب ان يعلمن كيف يجدن ادارة بيوتهن ويتقن العناية باطفالهن وتربيتهم لان هذه المعلومات هي ذات قيمة كبرى بالنسبة لحاجة المجتمع اليها .

واخيراً ان يوجد حيث تدعو الحاجة مركز المراقبة يكلف بتتبع تطور الصناعات والفنون والتطورات التي يجب أن تطرأ على التعليم بسبب هذا التطور .

وحبذا لو اخذنا بتنفيذ هذه البنود .

رباعيات الخيام « بقية »

لاني ما أشركت طول حياتي

نظم رامي وليته لم ينظم . انظر معي - ياقاريء - الى النثر مرة والى الشعر اخرى ، وقل لي هل أحاط بالمعنى كما يريد الخيام ؟

واما الزهاوي فقد استعصت عليه الترجمة . وكان من السهل على الحيدري خلع ضرس من اضراسه ولاينظم هذه الرباعية

بقي في الميدان شاعرنا الفراتي وما أدري ان شاعراً أبدع في الترجمة وأحاط بالنثر كما أحاط الفراتي في رباعيته هذه. فقد احاط بها كما يحيط السوار بالمعصم وكما تحيط القلادة بجيد الحسناء .

محمد سعيد الكيلاني

في مهب الريح

شعر : رفيق خوري

قلبي هنـا ممزق ينهش فيه القلق
يلفه الضباب حتى أنه يختنـق
تهزه الرياح والدرب غوي مغلق
والليل - والوحدة والغيم الكثيف المطبق
ولم يزل يضيء فيه أمل مشوق
لان قلباً مثله معذب - ومرهق
يجرحه الشوك ولايقول الا زنبق
ولايزال يرتجي ولايزال يخفـق
وربمـا يسعده لو أنه يحترق

. . .

غداً اذا لم يحتوينا موعد مزوق
وأمطرت بالسم أجواء وغام الافق
ترى اذا ماعصف اليأس وجن القلق
واندفع الماضي بلا ذكرى لديه تشفق
اذا شبابيك الهوى في قسوة تنغلق
أتنتهي في قلبنا اللوعة والتشوق ؟
أتطفيء الرياح قلبينا ويمضي الالق
ماذا ترى تحسه العيون لو تحدق
وكان لي نهارها يبسم أو يغرورق
غداً اذا لم نلتق وضاع منا العبق
ترى أينسى حبنا ذاك الطريق الشيق

دمشق رفيق الخوري

همسات بين الكواليس

في مؤتمر المحامين ببغداد

في آخر شارع الرشيد، من مدينة الرشيد والمأمون قاعة كبيرة تسمى (قاعة الشعب). حيث انعقد مؤتمر المحامين الرابع في ٢٦/١١/٩٥٨.

وكم عقد رجال العهد البائد في العراق اجتماعاتهم في هذه القاعة الفخمة وكم دبروا فيها المؤامرات على مصالح العرب الاحرار، لمصلحة الانكليز والاستعمار.

واول مايخطر على بالك، حينما تجيل الطرف في آفاق هذه القاعة، فيصل الملك البائد او الوصي عبد الاله وهو يتربع الشرفة الوسطى البارزة في صدر القاعة ليشهد اجتماعا سياسيا تتحطم فيه مصالح العرب وتربو فيه مصلحة الاستعمار، او ليستمتع بحفلة مسلية يقتل فيها الوقت مستهينا بحقوق الامة ومتجاهلا مصالح الشعب.

ولم تكن الجدران المصفحة بالخشب اللماع باقل روعة من المسرح الرحب ذى الستائر المخملية الحمراء في صدر (قاعة الشعب).

ولم تكن المقاعد الوثيرة المصففة في فناء القاعة، باكثر عدداً من المقاعد المرتبة على محيط القاعة بشكل مدرج او طبقات بعضها فوق بعض أشبه بالنظام الطبقي السائد في العراق قبل انتفاضته الكبرى.

هذه القاعة الفخمة، كانت في اليوم الثاني للمؤتمر، وهو يوم الخميس في ٢٧/١١/٩٥٨ مسرحا للمناقشة والمنافسة، ومنبرا للادب والخطابة.

وذلك لان موضوع الوحدة بين العراق والجمهورية العربية المتحدة هو الموضوع الذي اشغل المؤتمر في ايامه الخمسة، وركز اهتمام الوفود (بلجنة قضايا الوطن العربي) المنبثقة عن المؤتمر وتسابقهم اليها.

ولكي يعرف المرء مدى اهتمام الوفود العربية بموضوع الوحدة مع العراق يكفي ان يعلم ان عدد المشتركين في المؤتمر ستمائة عضو، وان لجنة قضايا الوطن العربي) وهي احدى اللجان الثانية المنبثقة عن المؤتمر، كانت تضم وحدها ثلاثمئة عضو تماماً.

وتستطيع القول ان المؤتمر هو كله لجنة قضايا الوطن العربي.

وهذا دليل على الروح الوطنية والقومية المتمثلة باعضاء الوفود، وما ارادة هذه الوفود، التي تؤلف الفكر الحقوقي في العالم العربي، الاصدي لارادة الشعوب العربية، الممثلة بهذه الوفود. وما رجال الحقوق والقانون الا مرآة الفكر الواعي التي تعكس النور على انظمة الحكم وقوانينه في البلاد العربية فتضيء الصالح القويم وتحرق الفاسد القديم.

ولم يكن الحماس والجدل ومطارحة الادب والشعر، بين جدران القاعة الفخمة، مركزا على موضوع الوحدة بذاتها، لان هذا الامر متفق عليه، وانما كان على تحديد الوقت لاقامة هذه الوحدة. فمن قائل بضرورة اقامة الوحدة الآن وفورا، وهو قول الاغلبية الكبرى، ومن قائل بالتريث قليلا حتى يركز العراق ثورته وينظم صفوفه.

اما الوحدة في ذاتها، فالجميع يعتبرونها الحلم الجميل الذي يداعب الافئدة والامنية الغالية التي ينظر اليها العرب بلهفة وشوق.

وان انتفاضة العراق يوم ١٤ تموز، التي صفق لها الشعب العربي في كل بلد عربي وهتف لزعمائها كل لسان عربي في كل شبر من ارض العروبة، لدليل واضح على قيام الوحدة الفعلية في المشاعر والعواطف والآراء والاهداف والآلام والآمال.

وان قيام الثورة في العراق عام ٩٥٦، التي اخمدها نوري السعيد بالحديد والنار يوم العدوان الفرنسي الانكليزي على مصر، لدليل على ان الوحدة حقيقة واقعة في صدر كل عربي.

وان القلوب التي تهفو للاردن الصابر، والعيون التي تنظر الى عمان المجاهدة والافئدة التي تتحرق على الجزائر المجاهدة، هي الحجة البارعة على ان الاستعمار مهما فرق الشمل وباعد الديار، فان وحدة القلوب ولايغلبها غالب.

وما الوحدة المدونة في الانظمة والدساتير الا الظل الجميل المحبب لوحدة القلوب والافئدة.

وعلى هذا الاساس فقد انتهى المؤتمر الرابع للمحامين

العرب المنعقد في قاعة الشعب في بغداد الى القرار التاريخي المتضمن توصية الحكومات العربية بالعمل للاتحاد او الوحدة وتدعيم القومية العربية التي اصبحت حقيقة واقعة .

فتأمل ان تجد توصيات المؤتمر الاذن الصاغية لهذا النداء السماوي ، لان كلمة الله من كلمة الشعب .

القاضي في الاقليم الشمالي

شهير ارسلان

التقمص السينمائي ـ بقية

ولزم ادخال روح الانتقام . وحاجة الانتقام قد تكون مقبولة فيما يتعلق بالاحلام وفي الاساطير الخرافية وفي الافلام العاطفية وقد لا تأتي عاطفة الانتقام عن عاطفة مرغوبة في الحياة جبراً بل قد تولد من حوادث طارئة ، ونرى هذه العاطفة لا في الافلام الدراماتكية فحسب بل في اكثر الافلام حتى الهزلية منها . كالمثل (الذي هو موضع التقمص) الذي يقع تحت ظروف مؤلمة مما بسبب السخرية والهزء على الشاشة وفي الصالة . مما يكن بخاطره ويجرح كرامته وفي ختام القصة قد يسترجع قوته وينتصر ونجاحه يعوض اهانته الماضية ولكن هذا التعويض بالنجاح لا يسر المتفرج العاطفي الا اذا تم هذا التعويض على حساب ادوار السلبية التي جعلة البطل يخسر كرامته .

ولكي يؤدي التقمص بالادوار الايجابية غاية لدى المتفرج نجد ان النهاية السعيدة ضرورية ، فخضوع المتفرج المتقمص لدور بطل الفلم لنهاية سيئة يسلب شيئاً من ايمانه بالحياة ،فيتخلى عن تقمصه في آخر لحظه ويبني بنفسه وبخياله نهاية سعيدة ، مما يجبر المتفرج على انفاق مجهود شخصي ، مما لا يهيأه ان يكون ان يكون بجانب الفلم بعد ذلك .

ولتخفيف حدة الحزن والتأثر بالنهاية السيئة تكفي صورة باسمة أو تلميح لأمل فصورة شابلين وهو يسير نحو الأفق ، نحو مغامرات جديدة ترفع عن المتفرج الألم الذي اصابه من الصورة السابعة ، وتقدم له فكرة مغرية بأن دولاب الحياة مازال يدور رغم كل شيء وان الامل بالسعادة مازال قابلاً للتحقيق .

خالد حمادة

العيون التي تحكي

للشاعر : عادل قرشولي

من رابطة الكتاب العرب

عدت الى البيت كما عـــدت
ولم أنم ، هــل ياترى نمت
لما التقينا أمس ، لم أرتعش
لم أبتئس .. صرت كما صرت
قد داربي شيء وسيع المدى
شيء خفي الســر كالموت
حاولت أحكي ، فلم أستطع
كل الحنين غص في صوتي
ماذا أقول ؟!.. آه ياحلوتي
لو تعرف الاشـعار ماأنت !

•

وشوشت عينيك صـدى كلمة
ومثلما وشوشت .. وشوشت
يكابر الانسان لكنمـا
تفضحه عيناه في الصمت

•

عدت الى البيت كما عـدت
ولم أنم ... هل ياترى نمت

الوردة الدمشقية وانتاج ادهان الطيب

بقلم : الاستاذ ديميتر ايفانوف

العضو المراسل في أكاديمية العلوم البلغارية

من بين انواع الورود واجناسها العديدة يستعمل بعضها فقط لانتاج ادهان الطيب ، ومن المناسب ان نشير هنا في الدرجة الاولى ، سواء من ناحية كمية العطر الحاصل او من ناحية نوعيته ، الى وردة كازانليك الحمراء (الوردة الدمشقية) ويحدثنا التاريخ أنها زرعت في بلغاريا منذ القرن الثامن عشر ، وخاصة في ضواحي كازانليك . ومن المحتمل ان هذه الوردة قد نقلت من الشرق الادنى ، ومن بلاد فارس على وجه التحديد ولقد وجدت تربة صالحة جداً في منطقة كازانليك والى غربي هذه المدينة . ان غرس هذه الازهار حالياً موزع بشكل رئيسي على ارفع منحدرات « ستارا بلانينا » و« سريدنا غورا » وتمتد على طول ١٢٠ ك . م . في منطقة معروفة باسم « وادي الورود » وثمة أيضاً اغراس مهمة جداً على المنحدرات الجنوبية في منطقة « سريدنا غورا » المركزية .

وعلاوة على الوردة الحمراء ، ففي بلغاريا تغرس أيضاً بقصد انتاج ادهان الطيب ، الوردة البيضاء (وردة الفجر) . ففي السابق كان غرس هذا النوع اكثر اهمية من اليوم ، ولكن بما ان عطاءها هو أخفض من عطاء الوردة الحمراء فان هذه الاخيرة آخذة باحتلال مكانها .

لقد بلغ غرس الازهار في بلغاريا أوجه في عام ١٩١٥ ، فقد بلغت مساحة الحقول المغروسة في تلك الآونة ٩٠٠ هكتار . ولكن بعد الحرب العالمية الاولى ، والازمة الاقتصادية خف الطلب وانخفضت المساحات المغروسه . وفي خلال الحرب العالمية الثانية عانت هذه الزراعة معاناة أقسى . وبفضل تعلق فلاحي وادي الورود بهذه الزراعة فقط استطاعت ان تحافظ على بقائها .

ان الدولة اليوم تحيط تطور زراعة الورود بعناية خاصة . فثمة غراس جديدة دوماً ، وهناك تجديد للغراس التي ضعف انتاجها . وتمنح الدولة جوائز لكل هكتار ذي غراس جديدة .

ان ادهان الطيب موجودة خاصة في تويجية الوردة . ولا يوجد الا قرابة ٢٠ ٪ من كمية الادهان في الكؤوس . ان معدل عطاء الوردة الحمراء هو من فئة ٠٫٠٣٠ ٪ وعطاء الوردة البيضاء قرابة نصف هذا الرقم . ويحصل كيلو واحد من ادهان الطيب وسطياً بدءاً من ٣ آلاف كيلو من الازهار . ويحوي كيلو المزهر قرابة ٤٠٠ زهرة .

وقد برهن على أن الوردة الطرية المتفتحة هي اغنى بادهان الطيب ، فهذه الكمية الاخيرة تكون منخفضة بمقدار ما تكون البراعم خضراء . ولكن بالمقابل فان الازهار المتفتحة تفقد بسرعة محتواها من ادهان الطيب . وهكذا في الخامسة صباحاً تبلغ قدرة العطاء ١٠٠ ، وفي الساعة العاشرة تصبح ٨٠ كي تنخفض في الساعة الرابعة بعد الظهر الى ٥٠ . ان انخفاض عطاء الادهان هو اكبر ايضاً في اوقات الجفاف والحرارة والرياح . ولذلك فان قطاف الازهار يجري صباحاً باكراً عندما تبدأ الازهار بالتفتح ؟ وفي الساعة العاشرة يجب ان تكون قد اصبحت في آلات التقطير .

ومن اجل الحيلولة دون انخفاض كمية الطيب عندما نجمع الورود في آلات التقطير فانهم يحفظونها في المياه الباردة . وقد اثبتت الابحاث المخبرية على ان الادهان لا تفقد شيئاً بهذه العملية .

ان الادهان تحصل بواسطة آلات حديثة للتقطير عائد للدولة . ويعهد بانتاجها الى افضل الاختصاصيين وتجري تحت رقابة الكيميائيين المتواصلة . وهذا يبعد كل تزوير فالادهان الحاصلة هي حتماً نقية رفيعة النوعية .

ان آلات التقطير مجهزة بمراجل تتسع لثمانمئة حتى ٥٠٠٠ ليتر وثمة انابيب حلزونية في قعر القدور . واحد هذه الانابيب مسخن بشكل غير مباشر على البخار بينما الآخر مزود بثقوب تتيح للبخار ان يؤثر على الازهار ، يصفون في القدر ١٠٠ كيلو من الزهر بسعة ١٠٠٠ ليتر ، ويضيفون ٤ امثال ذلك ماء ، ويمزجون الورود جيداً كي تتشبع كل وردة جيداً بالسائل . وفي اثناء الغليان يجذب بخار الماء الادهان الاثيرية التي تفصل بعد التبريد عن الماء . ويبقى التقطير من ساعتين ونصف الى ثلاث ساعات ، وتكون كمية الاستقطار الحاصلة قرابة ١٠٠ الى ١٣٠ ليتر لكل ١٠٠ ك غ من الزهور .

وفي المعتاد لا تحوي اسطوانة السائل الا قرابة الثلث من جميع الادهان الشيء الذي يسمى الخلاصة الاولى . اما الثلثان

الباقيان فموجودان في ماء التقطير او ماء الورد . ويستقبل هذا الماء في احواض خاصة ، ومن وقت لآخر يسحب قسم من الادهان بواسطة غليان جديد ويحوي الاستقطار ايضاً (الخلاصة الثانية) وماء الورد ويخضع هذا الماء الى تقطير جديد . وتتابع هذه الاستقطارات طوال موسم الورود ويباع ماء الورد الذي يبقى بعد هذه العمليات (قرابة ١٠٠ الى ٢٠٠ ليتر في كل استقطار) . ويحوي على قسم من مواد الوردة العطرية التي تذكر بخصائص ادهان الطيب البلغاري الذي لا مجال للتفوق عليه .

ان مزج الخلاصة الاولى والثانية الحاصلتين في الاسطوانات يصب في خزانات خاصة مصنوعة من النحاس المبيض بعناية ، وتتسع لقرابة خمسة ليترات من الادهان .

ومن أجل ان يتم التقطير على خير وجه ، فمن الضروري معرفة الكمية الصحيحة لأدهان الطيب من الورود المستقطرة ، اذ ان هذه الورود لاسباب مختلفة لا تعطي الكمية نفسها ، فأثناء التقطير يضيع قسم من الأدهان ، بينما جزء آخر (في الحالة التي لا يجري فيها التقطير حسب جميع قواعد الفن) يمكن ان لا يُقطر . ويتيح لنا جهاز اخترعناه ان تحدد كمية الادهان بدقة ٤ ٪ وذلك بمعالجة ٢٠٠ الى ٣٠٠ غرام من الزهر فقط . ان الطريقة بسيطة وسهلة للعمل الكبير . ويمكن ان يراقب الانتاج بسهولة وذلك عن طريق اجراء تجارب تحدد كمية العطاء الوسطي في قسم من الازهار .

وبعد انتهاء موسم التقطير فاذ الادهان الحاصلة توضع في مخازن خاصة وقبل ان ترسل الي المشترين تحلل الخلاصة العطرية تحليلاً دقيقاً . ثم تنقل الى اوان معدة للتصدير جيدة الختم . اذ الختم يضمن نقاء ونوعية خلاصة عطر الورد ، وكل صندوق مرفق بشهادة التحليل .

وفي الحرارة المتوسطة فان ادهان الطيب البلغاري هو مادة تحوي قسماً صلباً (ستيارو تبين) وقسماً سائلاً (ايليوبتين) . وفي حرارة ٢٥ درجة سنتغراد تصبح الادهان سائلاً ، ويصبح لونها اصفر شاحباً ، مع انعكاس أخضر أحياناً . ان السائل صاف ، كما ان عطره لذيذ للغاية .

ان نوعية الادهان مدينة لمظهرها ولعصرها وكذلك للتحليل الكيميائي . ان الخصائص الكيميائية والفيزيائية ، حسب اساليب راقية ، هي قائمة على اساس دقة شديدة .

وبمقتضى حدود عينتها الدولة البلغارية فان لخصائص الدائمة لادهان الطيب البلغاري يجب ان تضطرب بين حدود مبينة لا يجوز تجاورها .

ان الصفات العطرية في خلاصة ادهان الطيب توجد في القسم السائل وتجد هذه الخلاصة مجالاً واسعاً للاستعمار كما حصلت على شهرة عالمية طوال اكثر من قرنين ، ورغم سعرها المرتفع فانها قد فرضت نفسها على منافساتها التي تشكو التزوير والمزيج الاصطناعي وغير ذلك . ان الادهان تدخل في تركيب جميع انواع العطور الباذخة ، فتعطيها صفة ثانية ، عذبة وهذه الصفة الثانية عائدة الى انها تتمتع بخصائص تجعل العطر يفوح ببطء وتقدم ؛ ان العطور التي تحوي الادهان ثابتة جداً وتحفظ نفس العطر . ويجب لاجل التمازج ان تكون نوعية العطر رقيقة وخاضعة للمقادير المطلوبة . بينما في السابق عندما كان هذا الانتاج فوضى في أيدي ملاكين فرديين فقد كانت الادهان عرضة دوماً للغش ، أما اليوم فان الختم البلغاري وشهادة التحليل يؤلفان ضماناً مطلقاً للنوعية ، والأصل .

القصة في حياتي

سيداتي سادتي :

اشكر للاديبة اللامعة تقدمتها الكريمة واسرع فاعترف بان موضوعي موضوع عادي مطروق ، مألوف ، ليس فيه من الجدة شيء ولا من الطرافة . لكنني اقبل عليه بلذة ذلك لانه سيتيح لي ان استعيد ذكريات لي عزيزة ، وان اتحدث ، ساعة كاملة عن نفسي .. لكن هذا الذي استعذبه لا يمكن ان تستعذبوه ، بل اخاف ان تمجوه وتستثقلوه ، فان اكره احاديث الادب حديث الأنا ، وان كانت بعض آداب القرن الفائت تقبلت مثل هذا الادب لجدته اذ ذاك فان امقت ما امقته ادب اليوم هو هذه « الأنا » الغبية التي اتخمت المكاتب واتعبت المطابع ، والتي لاغناء فيها الا في النادر .

لكنه ان كان من لوم في اختيار موضوعي فعلي بعضه ، والباقي على صاحبة هذا المنتدى الراقي . انها هي التي اوحت به وزينته ودفعتني اليه . وما كان بي في الحقيقة من حاجة لان ادفع اليه دفعا واجر نحوه جرا ، اني ما كدت اسمع به حتى اقبلت عليه بنفسي وتفتحت له بروحي ، ولو اظهرت شيئا من التمنع ، كالمطرب الناشيء يذوب شوقا الى الغناء ويتأبى : حياء مفتعل واباء كاذب ، وان في نفسه للهفة اي لهفة الى ما يطلب منه ويدفع اليه .

اذن فساحدثكم الليلة عن القصة في حياتي ، ومن حظكم ان صاحبة الفكرة اكتفت بهذا ولم تحتم ان يكون الموضوع قصة حياتي . ولو فعلت ، لما طال تمنعي ولا قبلت اسرد على مسامعكم الكريمة في خمس ساعات متواليات توافه عمري وانا احسب ان ما اتلوه من الروائع ، ذلك لان الانسان ضعيف تجاه نفسه ، كضعف الام تجاه بنيها ، واضعف الناس اديب يقص ذكريات شبابه الذاهب .

ايها السيدات والسادة ، ككثير من اترابي وابناء جيلي من الذين تتراوح سنهم بين الاربعين والخم . . . والثلاثين ، قرأت من القصص الحديث اول ماقرات المنفلوطي . وكافتنهم جميعا فتنني فتنة اعمق واقوى ، ولذلك سبب :

كنت اسبح في راس بيروت وقفزت من صخرة عالية ، لاقفزة راسية ، بل على رجلي وبدل الماء جئت على سيف البحر الصخري وافقدتني جراح ركبتي شهرين دون حراك ، وجاءت الهدايا وبينها روايات المنفلوطي وهي في اوج شهرتها : في سبيل التاج الفضيلة ، النظرات والعبرات ، سيرانودي برجراك وتحت ظلال الزيزفون او ماجدولين .

تحمست ماشاءت لي الحماسة وفاضت عيناي بما شاءت من غصص الدمع وانا في سن جبارة تستحي من مظاهر الضعف وتانف الدموع ، وكيف اغالب الاشجان وانا حبيس فراشي !! والم بصدري ضيق لايعرف مداه الا الله كما يقول المنفلوطي رحمه الله . وطبعت بطابع هذا الكاتب البارع وتقمصني ابطاله بطل تلو آخر من دون عناء فقد كان قلبي اشبه بالعجينة تكفيها ادنى لمسة من لمسات الخير والجمال والبطولة .

وخيل الي ان اعظم شيء في الدنيا الادب وان اروع الادب ادب المنفلوطي ، فاذا قابلني عم لي اوثره وسالني : ماذا تحب ان تكون في مستقبلك اجبت على الفور : اريد ان يكون لي قلم كقلم المنفلوطي ، فاعارض العم عن هذه الاجابة وحز في نفسي ان يبلغ به الاستخفاف بطموحي هذا الحد الذي لمسته .

ولم ادر اذ ذاك ان الرجل قد اشفق على ابن اخيه ان تدركه حرفة الادب حقا فتذوب بين يديه ثروة ابيه ليرة ليرة وقرية قرية وعقاراً في اثر عقار .

وكرت الايام وتحمست لروسو ، فلو جسر احد زملائي في صف البكالوريا ان يذكر خصمه فولتير المتهكم بكلمة خير لشتمته او لكمته ، بل ويل لاستاذنا « بوزيه » لو حاول ان ينال صاحبي ببسمة عابثة لما في ادبه من غلو ومثالية ساذجة . فاذا اممت جنيف كان اول ما حججت اليه جزيرة روسو الواقعة في قلب المدينة بين جسرين ، هناك وقفت امام تمثاله اناجيه كأنه صديق حبيب . ثم تعلقت بلامرتين وان كنت لم افهم من شعره الا اتفهه ، واحببت شاتوبريان وسحرتني فخامة اسلوبه وضخامة عباراته . . امسيت رومنطيقيا صغيرا انظر الى الحياة من خلال سحبها الوردية ، وحسبت انني فهمت من الحياة كل الشيء ، وكان يمكن ان اتعلم من الحياة بعض الشيء لكنني اصبحت بفضل هذه الرومانطيقية المفرطة ادرك من الحياة لاشيء لاشيء ... وكلفني ذلك كثيرا ، واليكم تفصيل ذلك :

ان احب من احببت من ابطالي كانوا طبعاً ابطال القراءات المنفلوطية الاولى ، كستيفن ، العاشق المعذب

والموسيقى النبيل، فعشقت من اجله الموسيقى والنفوس المعذبة النبيلة.

واحببت سيرانو الشاعر الشامخ ذا الانف العظيم والشمم العظيم، الاديب البطل، الصغير مع الصغار، الكبير على الكبار، عدو العظماء الفارغين الشامخين الظالمين الغادرين من زعماء السياسة والمال والدولة والوطنية الكاذبة.

سيرانو! لكم احببت شاعريته واستعلاءه وتمرده واحتقاره لكل مظهر خداع ولكل رئيس تافه ولكل دعي فارغ ولكل ثري لص. ولما كانت الدنيا بأكثرها قد برأها الباري على نمط لا يعجب سيرانو كثيراً فقد انحزت لحزب سيرانو وامثاله وهو ويا للاسف الحزب الخاسر دوماً، المغلوب ابداً والمحروم المفلس «الغلبان»، ذلك لانه حزب المحاربين جهاراً؛ واظفر الحروب ليست حرب الجهار، بل حرب الدسيسة والخديعة والختل.

وبفضل مدرسة سيرانو طال لساني وقل حذري وحقرت لدى اشياء لم ادر انها امهات الركائز في حياة المجتمع. فاذا دخلت جمعية الامم سنة ١٩٣١ موظفاً صغيراً لا البث ان اصطدم بشاوبونيه رئيسي المباشر، ويا لاذنيه ماسمعتا من قاموس سيرانو. واذا حسبت اني احسنت صنعاً صفقت باب جمعية الامم وخرجت غير آسف على المستقبل اللامع الذي كان يمكن ان ينفتح على مصراعيه امامي لو اني القيت ببعض سمعي الى شيخ العابثين الضاحكين الماكرين «فولتير».

ثم تبدأ سلسلة المعارك مع الطلبة الصهيونيين في جنيف ثم في برلين وروما وباريس، ثم مع الفرنسيين في حلب. فاذا تسلم الوطنيون الحكم في سوريا عين صاحبنا مديراً للدعاية والمطبوعات، فاذا بزملائه واخوانه ممن تسلموا الرئاسات والوزارات يفهمون من الدعاية مالا يرضى عنه سيرانو بحال من الاحوال، فلن يرضى قط ان تكون الدعاية الا للمثال الصالح ولتقويض العمل الطالح، ولن تكون لحساب احد من الناس مهما كان كبيراً، انها للوطن وحده لا شريك له. فيضيقون به ويضيق بهم فيخسر الوظيفة، وسيخسر كل وظيفة بعدها، وسيخسر في كل عمل يقوم على المكر لا المقدرة وعلى التزلف لا الاباء وعلى الالتواء لا الاستقامة وعلى الظلم لا الرحمة، وكل ذلك بفضل ما نفخه فيه المرحوم التقي النقي الشيخ مصطفى لطفي المنفلوطي قدس الله سره، وشاعره المتمرد المجنون سيرانو دي برجراك الذي بات عمره معذبا فقيراً ثم مات على الحصير.

وكما احببت ماقدمت كذلك شغفت بالكتابة شغفاً كبيراً، لكنني لم اكتب في اول امري الا قليلا. بعض رسالات في الغرام لاتلبث ان تضيع او تهمل رغم اعجابي الهائل بها. وكان طبيعيا ان لاتعرف طريقها الى البريد، فلم يكن هنالك من أعرفها فابعث بالرسالات اليها ان اول ماعرفت كانت انطوانيت، ويالانطوانيت كم كرهتها ذلك لان المسكينة ارتكبت خطأ فاحشا: اظهرت لي الحب قبل ان اشعر نحوها بالحب، وتشبثت بتلابيبي قبل ان احس الحاجة الى التشبث بها... والصقت بي ذات ليلة كمضغة العلكة الانكليزية، فلم تزل تراقصني بالرغم مني وانا انضح بالعرق ولا منديل في جيبي. وكلما توقف الجاز صفقت بقوة كالمجنونة وابت ان تدع حلبة الرقص، والبنطلون الفضفاض يهتبل فرصة انشغالي برقي وبحيلة تنجيني من شر هذه المحبة اللازقة فيروح يهبط رويداً رويداً، فيمر بي صديقي منير الغندور سفير لبنان في اليونان اليوم وينتهرني بصوت غاضب: العمى ارفع بنطلونك الا تراه تدلى كالشروال!..

وانظر الى هذا الصديق الآدمي، أكاد اطق من الغيظ: يالعين، لبست فراكي، وانتعلت حذائي واقترضت دراهمي، وجئتني متأخراً في الليل فايقظتني وانا في احلى نومي لاصحبك الى هذه الحفلة وانا بغنى عنها، باللباس الذي استعرته لي من صاحب بيتك السمين، ثم عرفتني الى هذه المصيبة، وربطتني بها ليخلو لك الجو فتذهب بشقيقتها الحسناء حيث تريد. ثم ترمقني من فوق وتصيح بي كنابليون يصيح بعسكري من عساكره: ارفع بنطلونك! وهل ابقت لي هذه الحمقاء النكداء عقلا احس به أنزلق البنطلون ام طار بالمرة!

ويصبح الصباح على اتعس حفلة قضيتها في حياتي. واني لانام اعز النوم واذا بالبريد ياتيني ليوقظني ويلقي الي بكراسة من كلام يلتهب، وحشاشة تذوب: كانت من رفيقتي التي لم تنم، وكانت بكلام كالشعر جميل لكنه لاوزن له.. ثم علمت انه من النوع الذي يسمونه الشعر المنثور، فاقشعر بدني من الشعر المنثور، ووقف شعري لكل منثور ومشعور، وكرهت الادب بحذافيره لشدة ماكرهت السيدة النثر شاعرة انطوانيت وانصرفت كل الانصراف الى الكيمياء احتمي برموزها من ادب الحب.

ولا ادري بالضبط ماذا دهاني بعد ذلك فانصرفت الى روائع العلم واستخففت بالادب، وكدت اجد فيه مضيعة للوقت والهية دون جدوى. ويا له من قزم تبدى لي كلما

قارنته بشواهق العلوم : كعلم الجوهر والارض والطبيعة والكيمياء .

واني لمستلق ذات يوم على ضفة الرون تحت جمدية الاش الهائلة اطالع بحثا في الكهارب وحولي جبال شاهقة وثلج ناصع ومراع تضيع فيها الانعام اذا بي استيقظ فجأة على عالم جديد من التفكير . وتنكشف لي الدنيا على غير مانشأت عليه . واذا انا مفتون بهذا النمط من التفكير الجديد المتحرر الجاحد الذي حنث بكل ما آمن به من قبل وحسب انه بلغ الحقيقة ضالة المفكرين منذ افلاطون وارسطو الى كانت وشبينوزا . وكما اضلتني الرومانطيقية عن واقع الحياة اضلني العلم الحديث عن واقع الكون ، وانا لا ادري ان الكون اجل من ان ندرك خفاياه بعلمنا الفتي المحدود وابعد من ان نكشف اسراره بتفكيرنا السطحي الصغير . وازداد مابيني وبين الادب من جفوة ، لكن ذلك لم يمنعني من متابعة دروس الادب من وقت لآخر وانا لا ادري اي الندائين اقوى في دفعي اليها : نداء الادب نفسه ام نداء القاعة الكبرى في الجامعة التي حفلت بروائع الصبا والجمال من طالبات الادب ، وقد غفرت من اجلهن سوء طالعي القديم مع الشاعرة الناثرة انطوانيت .

وانطلق الطفل الذي بي يجوس دنيا جنيف بشوارعها المزدحمة وانديتها الحافلة وملاهيها الصاخبة واناسها الناعمين ويلتهم كل شيء بعينيه الظمئتين وحسه المنهوم ، وبدأ يعيش فصولا من « نهم » قبل ان يكتب بعد سنين قصة « نهم » ، ودخل ذات يوم جمعية الامم كموظف صغير ، كما قدمت ، فكبر بعين نفسه ، واستخفه العجب . فهو اذن اديب سابق ، وعالم لاحق ، وسياسي . ولا ينقصه شيء حتى يصبح زعيما . وتم له ما أراد ، فمـــا كاد يعود لقضاء العطلة في حلب حتى انخرط في سلك المتظاهرين ، وصاح وتراشق وخطب ، فالقي في السجن ، فاذا هو زعيم .

ونظرت الى الجدران فاذا هي شاهقة وحولي مئات من النشالين واللصوص والقتلة ، ولم نلبث ان تبادلنا المودة . واقبلوا بقلوبهم نحو الشاب الذي عمل تحت قيادة ابراهيم هنانو وناضل معه ، فغيظ الفرنسيون ونقلوا الشاب الى السجن المنفرد ، ثم ازدادوا كيدا فنقلوه الى زنزانة قامت من دونها اربعة ابواب مكفهرة تفصل بينها جدران وباحات وحجرات غصت بالموء بدين من المساجين . فاذا انفتح امامك الباب الثالث وجدت نفسك في باحة موحشة لاتبلغ اليها الاصوات ، وكانك فيها قد انقطعت عن الخلق وانك توشك ان تدفن حيا ، وفي جدار من جدرانها اشرع باب ذو قضبان من الحديد يجري امامه كهريز السجون مكشوفا تفور فيه الاقذار وتهب منه الروائح فتجتاز القضبان الى الحجرة الرطبة القائمة خلفها ، النتنة كجحر الضبع ، فاذا خفق هواء الصيف القائظ انعقدت سحب خانقة وراء قضبان الحديد ، وكان اسراب الثلاثة عشر صنفا من اصناف الحشرات التي سعت هناك اعتادت ذلك الجو فلا تباليه ، اما الانسان فيا ويـــله ، خصوصا اذا القي هناك وحيدا .

وراء تلك القضبان ، وفي ذلك الجو الخانق قامت زنزانتي وهناك ، جاء وحي القصة الاولى .

كنت قابعا على الحصير ارقب الباب ، ولذ لي ان اتصور ان الباب يفتح ويدخل منة مدير السجن ليقول بلهجته الباريسية APPeg Sous éps ltpse اخرج ، انت حر .

ويشرد الخيال ليكمل حلمه ، فيرى كريستين صديقتي السويسرية الى جانب مدير السجن . اذن فهي صاحبة الفضل في اطلاق سراحي ، وسر ذلك انها لما امضها الشوق لحقت بي ثم توسلت الى المستنطق فامر باخلاء سبيلي ، ذلك لانها ذكرته ببنت له ثكلها منذ قريب

اما وقد انطلق الخيال فلن يقف عند باب السجن كالابله فتنتهي الحكاية وهي على اشد ماتكون من التفاهة ، لقد دب فيه مايشبه الحمى . فهو يعدو وينط ويلملم الذكريات بلذة وحنان ، واذا الذكريات عطرة ريا عذاب تلفها رياض جنيف وكانها من رياض الجنة وتغني لها موجات البحيرة اغاني ناعمة كهد هدة الاطفال ، وتنسكب عليها الوان الماء والسماء والعشب المخضل والثلج المشع ، وظلال من بنفسج وافياء من ورود ومن نسرين . والحان عذاب تسير على الكون فتحيره سحراً وشعراً ، وآهات ودموع وخواطر ثائرة وعواطف لاهبة ... ألم اقل لكم ان صاحبنا كان رومنطيقيا صغيراً ؟؟

وحين عدت الى هيكل القصة فالبسته وحشوته ونفخت فيه من روحي ، لم يلبث ان صار كتابا سويا ورواية تجاوزت خمسمائة صفحة اسميتها باسم كئيب « في اثر السراب » وكأن السعادة سراب والناس في اثره يركضون ، كلما حسبوا انهم مدركوه نأى وابتعد حتى يقتلهم الظمأ وما نهلوا من الدنيا الا سرابا .

ايها السيدات والسادة

صاحب هذه الدار الكريمة وامثاله ممن ذاقوا طعم السجن يمكنهم ان يتصوروا شعور الانسان في مقتبل عمره اذ يدفن في جحر يسمونه الزنزانه . لعلهم يذكرون ان الحرية اذ ذاك تبدو للسجين كنعمة جلى لاتدانيها في العالم نعمة اخرى . ان تكون حرا تخرج من بيتك متى شئت وتدخله حين تريد ، وتنطلق في الشوارع تقف هنا او تسعى هناك وتعبر من رصيف الى رصيف ، وتلصق انفك في اي واجهة من واجهات المخازن الجميلة دون معارض، وان شئت ان تقوم من فراشك بمنتصف الليل وتفتح الباب ثم تنطلق على هواك فانت حر ، لاحارس يمنعك ولاقضبان من الحديد تردك .

فاذاخرجت من سجني ذات يوم، ونشقت ريح البلد وكرع نظري في انوار المدينة ولافتات الملاهي ووجوه الحسان احسست لاول مرة ان قلب الانسان خلق صغيرا ، اصغر من ان يستوعب فتن الحياة وجلائل مباهجها وروائع لذاتها . لكن الانسان لربه لكنود .

وقيل حرمت عليك سكنى البلد ، فيممت وجهي مرة اخرى شطر بلد البحيرات والجمديات والاودية المخضلة والجبال الشاهقات انهل من العلم ، وارشف من اللذة ، ماذا اقول ؟ ؟ ارشف ؟ بل قل : اجرع واكرع واعب وامقع وامتع من اللذة حتى انفح منها الشهد والرحيق والثمالة والحثالة وما تبقى وماسيكون غدا

وكنت من قبل صخابا في لذتي ، واذا انا انسان آخر يستشف اللذاذات بنفس طويل ، هادئا صامتا قريرا ، كناشق الافيون ، يسحب النفس الى اعماق اعماقه فاذا استوعبه تشبثت به رئتاه واحل فيه كيانه ، واذا هو في الدنيا مخلوق يعي ، يعي الكون بحس آخر وذهول مطلق واستسلام مخيف .

وتبدى لي الكون كله كرواية كبرى ، كل انسان فيها بطل صغير

ذاك الفتى الماجن الذي يرقص ضاحكا ، وذاك الكهل الساهم الذي يعمل ساكتا، والمتسول العجوز يملأ الشارع بضجيج موسيقاه ، واستاذنا يلقي درسه بصوت حائل كأن في قلبه عينا تبكي ، وزميلتنا الجميلة التي استهانت بحشاها لحظة طيش فاذا هي مسجاة تموت ، ورفيقنا الباسم دوما لوفتشت عنه في منتصف الليل لوجدته غاطسا في اكداس من صحون المطعم يفض عنها البقايا ليقتات ويكمل عمله . قصة الاقاصيص ،،،

كل شيء فيك قصة .

لما بدا لي اني دنوت من الحياة واضحيت اروض افانينها بحس اعمق ، قام في نفسي اني ان كتبت بعض تجاربي الجديدة فسيكون من ذلك شيء يقرأ ، وانتقلت فجأه من البلدة الصغيرة الضيقة الى برلين العاصمة الضخمة التي لاحدود لآفاقها ، والقاني حسن طالعي او تعسه ، في ابد مفتنة ومحيط مرهف وزمرة من المثقفين ، فانفضح لعيني جهلي وغثاثتي وقرب غوري ، واني تافه في علمي مقتر علي في ثقافتي ، واني بدائي خشن . اما الادب الرفيع الحي كما رايتهم يتداولونه فلكم بدوت لنفسي قزما امام شرفاته الشاهقات .

وكنت قد اعددت رواية اخرى تناولتها صديقة من هناك بالترجمة عن ترجمة فرنسية وضعتها بنفسي ، فاذا اطلعت على ترجمتها بما جاء فيها من بلاغة وما زيد فيها من روائع الخواطر وجميل اللفتات ازددت صغراً امام ذاتي ، والقيت بروايتي جانباً موقناً ان الدرب لا يزال طويلاً علي ، واستسلمت كالغلام الصغير الى اليد التي مدت الي برفق واناة لتقتادني الى المناهل التي لا بد منها لمن شاء ان يكتب ، الى « البرغمون » حيث وقفت ساعات اتأمل تماثيل الاغريق ورسوم الايطاليين وغيرها من روائع الفن الشهيرة .. الى اوبرا برلين حيث تعرفت الى بتهوفن وموتزارت وليست وفاغنر .. الى الفيلهارموني حيث اعتصرت فؤادي الحان براهمس وباخ وهايدن وشوبرت وشوبان وكريك ومندلزون ، الى الكرول اوبر حيث سحرتني لاتوسكا ولاترافيانا وكارمن وريغوليتو وعشرات مثلها .

والاجواء الساحرة حولي تنفذ في خلاياي وتموج في عروقي كأنها اكسير من الحياة عجيب يمور في دمي فيهيجه ويزكيه ، فاذاحلت ساعة النزهة سعيت في ظلال التيركارتين وكأن كيلو متراته الثلاثة ملك لشبابي ومرتع لسروري ، او اممت شواطىء البحيرات حول المدينة اسبح او اتشمس او اغرق نفسي في بحار من الاجسام البشرية تتعرى للشمس تطلب منها القوة واللون الجميل . واذا اويت بعد ذلك الى ركن هادىء استمع الى انشودة من اناشيد غوته وهايني هزني الشوق الى الادب من جديد وعدت الى اصحاب اليوم من فحول الادب الجرماني واصدقاء الامس ، فولتير وقد اصبح سيد الكتاب عندي ، وبلزاك والفونس دووى وفلوبير واناتول فرانس واقرانهم العديدين من فحول الآداب الاخرى ، واذا بي اكتشف لديهم من كل قراءة جديدة لونا من البراعة جديداً ، فاذا التفت الى

مشاهير كتابنا اذ ذاك وانا جد خجل وآسف حزين: الى الصاوي وهو في اوج شهرته «اذا هو مترجم غث وكاتب ضعيف واذا هو وهاب نهاب، واذا ارادان يغوص بنفسه فماؤه ضحل وغوره قريب» وانظر الى هيكل المعتز «بزينب» كثيراً فاذا هو غر مسكين تنفض فنه الروائي من الفه الى يائه فلا تخرج منه بطائل بل يخيفك ما تلمسه فيه من بعد عن الواقع وجهل لمبادىء العلوم. وقد يستوي وغيره من فحول كتابنا السابقين في هذا الجهل لأبسط المعارف العلمية، يخلطون بين الحور والزاب والجندب والحالوش والغرانيت والصوان ويكادون ينبتون النخيل على الجبل الابيض، هذا بينا ترى غوته العتيق يكاد يكون عالماً اكثر منه شاعراً، وما «الغوتيت» الا حجر نادر اكتشفه غوته فسمي باسمه: اما شيلابناي حامل جائزة نوبل في الآداب فبيولوجي قبل ان يكون اديباً، واما كرونن زعيم الرواية الانكليزية الحديثة فطبيب، وما بلغ همنغواي وسمرست موم وامثالهما من جبابرة الادب ما بلغوه من شهرة عالمية عبثاً، بلمامة من المعارف وحشو من القول، بل بعلم غزير وتجربة واسعة وشعور ارهفه مراس الفنون الجميلة.

واما لورانس الروائي العالمي الذي هز المجتمع الانكليزي بروايته الجريئة «عشيق الليدي شاترلي» فانك سترى الى بطلته النبيلة اذ يغازلها عشيقها الجلف بمنطقه الفج وكلماته الفاحشة وترى الى الاطار حولهما والى البيئة التي رسمها لورانس لحبهما المدنس فتشعر أن وراء الروائي يكمن عالم من علماء الاجتماع واقتصادي كبير اما بيير لوي الفاجر فانك لتقرأ له «افروديت» مرة فتسحر، ثم تعاود قراءتها فتزداد سحراً، فان عدت اليها بعد سنين اكتشفت فيها من دقيق الفن وعميق الاطلاع ما يزيدك اقبالا واعجابا.

فاذا انحدرت الى كتاب اليوم رأيتهم من اكبر كبيرهم الى اصغر صغيرهم، الى فرانسواز ساغان، التلميذة المقصرة في البكالوريا يغرقون في مواضيع يعرفونها معرفة ولا يصطنعونها اصطناعاً.

وقد اقرأ لكوليت الفرنسية او لسلمى لاكرليف السكندنافية او لف. ب. اليهودية النمساوية فلا البث ان اقف دهشاً اسائل نفسي: متى يتاح لي ان أكتب مثل هذا؟ تقص ف. ب مثلا قصة طالبة في الكيمياء فنعيش في بيئة الجامعة والمخبر ونعاشر الطلبة والاساتذة والباحثين في صفوفهم وحفلاتهم ومساكنهم وخلواتهم، فيخيل الينا ان الكاتبة قضت حياتها في تلك البيئة لا تغيب عنها دقيقة من دقائقها، بل ليخيل الينا انها حفظت «التروفل» عن ظهر قلب وبرعت في المعدنية والعضوية معاً، كل ذلك باسلوب هو الشعر الخالص والفن المصفى، فاذا يئست بطلة القصة من الحياة، فرشة من سيانور البوتاسيوم في اناء صغير يسكب عليها بعض حمض الكلور، وتنطلق من المزيج المتفاعل حروف ثلاثة خفيفة لطيفة كالنفس، فاذا لامست خدشاً في اصبع الفتاة اندفعت فيها كالصاعقة، فوقف القلب وانطفأ السراج، وتذهل للحياة الجمة العارمة الفتية تزول للمسة من غاز وكأنها مصباح ضئيل تطفئه نفخة.

كل هذا يأخذ بلبي ويدفعني نحو الكتابة مرة اخرى، ويستهويني طه حسين في جل ما يكتب ويهزني الحكيم بروائعه الجديدة وأهلل لكل رائعة من روائع المدرسة العربية الحديثة، واحس انه قد آن لي ان اخرج من سباتي، وانا على اهبة العودة الى بلادي عام ١٩٣٦، وفي رأسي من الخواطر ما يشبه الخلية وفي قلبي من المشاعر اتون مستعر.

ولا يكفيني ما انشره في الجهاد المصرية حول القضايا العربية بل اصبحت اطمح في الوصول الى اكبر عدد من القراء باسرع وقت لابلغهم الرسالة القومية التي خيل الي انها الرسالة الطبيعية لكل كاتب عربي لابناء قومه المشتتين، كنت اود ان اثير في قلوب الناشئة نعرة الاعتزاز بانهم عرب، يوم كان الكثيرون من ابناء هذه الامة في بعض اقطارها يستحيون ان يلصق بهم نسب العروبة كنت اود ان ارسل ايماني بوحدة العرب لامجلجلا خشنا قسريا، بل ناعما حلوا ترضى به النفس وتهواه، وما حيلتي الى ذلك سوى الرواية، انها هي الواسطة الكبرى لبث الآراء وتحريك الجماهير وحملها على ما تعجز حملها على ما تعجز حملها عليه القوة المال والسياسة.

اود ان يعلم العربي ان اوروبا، وكانت اوروبا كل شيء اذ ذاك، ستنحني لاحترامه يوم تحس انه قد غدا يعرف مقداراً لنفسه وقوة وحدته، وانه كما كان بالامس عزيزاً كبيراً فسيكون في الغد عزيزاً كبيرا

وما نسيت يوم حل جابوتنسكي بجنيف لالقاء خطاباته الشهيرة للدعوة للصهيونية امام الوف الحاضرين فلم ينبر له من العرب فرد واحد بل لم يحضر الاجتماعات منا سوى نفر قليل.

وما نسيت يوم قرعت باب صاحبي، فاذا انكرت صاحبة النزل اسميها الغريبين رايتها يطلان براسيها من الغرفة وانا لااعلم

انهما تهيبا للنزل قد بدلا الاسمين فغدا الاول

وكانا على ما اعلم يسميان عبد الله البيسار ومحمد علي رعد اردت ان اكتب فاهز امثال هذه الضمائر ، وما اكثر ما كان يشبه هذي الضمائر في ذاك الحين .

وطفقت ابحث عن حيلة تضعني باسرع وقت في مصاف الكتاب الذين تتمتع تآليفهم بانتشار واسع ، وانا بعد طفل في عالم الآداب وكويتب مغمور في الثالثة والعشرين من عمري.

كان الزي اذ ذاك — كما هو في كل حين — للقصص الاباحي والادب الصريح : الزنبقة الحمراء ، تاييس ، كلودين ، افروديت نانا ، عشيق الليدى شاترلي ، الغلامة ، جسمك لك ، انصاف العذارى ، رحمة بالنساء رفقاً بالقوارير ، وعشرات مثلها . وكان ذلك يترجم الى العربية ترجمة تجارية تودي بروعة الفن وتبقي على الهيكل الاباحي ، ورغم كل شيء راج سوقها . وعلى ذلك حسبت اني لن ابلغ الشهرة الا ان اتبعت مثل هذا السبيل ، وكان الدرب معبدا سهلا منذ القديم بفضل الفونس دوديه وزولا واناتول فرانس ولورنس اوبير لوتي ومونترلان وليون دوديه وفيكتور مرغربت وباقي القافلة الطويلة . فان بلغت ما تمنيت عدت الى هدفي الاصيل ، وتنكبت هذا المبدأ الذي لا اؤمن به ، الضال المضل الخاطىء الخادع ، مبدأ « الفن للفن ان اتخذ سبيلا للافساد الذي ارتكبت باسمه الف جناية خلقية وقومية وانسانية ، والتي فتت من قوى الامم الكبيرة شيئا كثيرا .

ولا اذكر كيف تهيأ لي الموضوع ، ولعله كان مختمرا في عقلي الباطن ، فاذا شرعت اكتب اندفق من تلقاء ذاته ، واذا هو بعد ثمانية عشر يوما رواية كاملة أسميتها « نهم » ودفعتها الى السوق بعد ثمانية عشر يوما اخرى ، واغمضت عيني اغماضة من يترقب الصفع على قفاه وفعلا انهلت الصفعات ببضع مقالات من نار في جريدة الشباب الحلبية واخرى لا اذكرها ، وقصدت للدفاع الصحف الاخرى ، وحمي الوطيس حتى بلغ الامر بين المتخاصمين الى العصا

وضاق صدري ، وحسبت انه السقوط الذي لا قيام بعده ، وودعت احلامي بالمكانة المرموقة وسرت الى بيروت خجلا بجالي يائسا حزيناً اناجي نفسي : مالك ايها الفضولي المتطفل ولهذا الادب الذي لم تخلق له ، عد الى كيميائك فهي اشرف لك وابقى على سمعتك . وامكث في بيروت اياما لا اقرأ كتاباً ولا اطالع جريدة ، بل اقلب طرفي في مويجات البحر واغرق همي في ملاهي الليل ، ودهمتني ذات يوم وانا في مطعم « سعد » بالزيتونة صديق لي ببريد ضخم تجمع في حلب ثم ارسل الي على عنوانه : المقتطف ، البلاغ ، المصور ، وعددان من الكشوف ومجلات اخرى وصحف كثيرة ورسالة من وزير المعارف اذ ذاك الدكتور عبد الرحمن الكيالي واخرى من اديبة ذلك العهد واديبة اليوم ايضاً السيدة وداد سكاكيني ومن النقادة المصري حبيب الزحلاوي وكلها تتحدث عن نهم . وكان للمقتطف مكانتها الاولى في الصحافة العربية المتزنة ، فاذا اختتمت بحثها الطويل بهذه العبارة الغريبة وهي تبحث عن نهم « هو ذا نجم اشرق في سوريا يشير الى ميلاد جديد في عالم القصة ، وينقل الرواية العربية الى مستوى عالمي » دار الفضاء بي فاكاد لا افهم ماتطالعه عيناي واحس بغصص الدمع تعربد بين عيني وصوري ، لكن سيرانو كدأبه ، كان بالمرصاد يردد علي مع الغريد دوفيني :

النواح والبكاء والتوسل ، كل ذلك من الجبن .

وامسك دمع الفرح كما امسكت بالامس دمع الترح وصدقت ماقيل عن نهم وقد غرب عني اننا نغالي في المدح كما نغالي في القدح وان « نهم » ان كان لا يستحق مارمي به من نقد موجع فانه كذلك لا يستحق ماحيط به من ثناء مفرط .

ونفدت طبعتا نهم باقل من شهرين ، ورفضت بعد ذلك ان اعيد الطبع . لعل اكثر ما اثار الرضا عن رواية نهم غرابة موضوعها وانها قامت على عقدة نفسية ربطت مصير بطلها طول حياته بلحظة مرت عليه في طفولته ، فهو اذ يعشق في صغره تمثال فينوس دون ان يدرك حقيقة شعوره يرتبط بصورتها طول حياته ويبحث عقله الباطن بين عشرات النساء من صواحبه على مثله الاعلى الذي انطبع في خفايا وعيه ، فاذا لم يجد تخلى عنهن واحدة تلو اخرى ، زارعا الاسى والحزن واللوعة انى ذهب ، لان فيه كل صفة من صفات الرجولة التي تثير اعجاب النساء ، وفي نهاية الرحلة الشائقة يلتقي بهيلدا كارد في الوقفة المروعة الخلابة التي لقي بها فينوس في صغره لاول مرة فيشده ويعجب ويتلاشى عنفوانه وتذهل رجولته . وتحدث المأساة الكبرى التي لا مأساة مثلها في حياة الرجل ، فاذا اشرفت الرواية على نهايتها رأيناه في زاوية مظلمة منعزلة على شاطىء البحر قد عاد الى المرأة في احط دركة من دركاتها واذا هو مع مومس رخيصة ، تحدثه فلا يجيب الا اقتضابا ، بينا فؤاده يطلق صيحة الرجل منذ الازل رباه ، لم خلدت في عروقنا هذه المرأة تلفحها حتى آخر نسمة من نسمات حياتنا !

البقية على الصفحة « »

فيحمل اليه الاثير بيت غوته الشهير الذي اختتم به حياته الانوثة الخالدة تجرنا اليها جرا .

وجاء دور المهمة التي رسمتها لنفسي فكانت « قدر يلهو » وفيها ترى الشاب العربي لاهدف له في الحياة سوى الكفاح لتحرير بلاده ولا يعتز بشيء كمثل اعتزازه بانه عربي ، في محيط غربي محض ولن يرضى قط ان يسجل امام اسمه : سوري او غير ذلك بل عربي عربي عربي ، بل انه ليعتز باسلامه اشد الاعتزاز فاعظم فخر للعروبة ان الاسلام قد جاء فيها .

وتجن بنات برلين بالعربي الاسمر وتسحره فيه تلك الانفة المضرية وذلك الدم الفائر الذي لو ارسل بعضه في الجماد لتحرك وتتكتم احداهن على جنين منه وهي تعلم ان علاء لن يقترن الا بفتاة من بلاده مهما تعلق بصاحبة من صاحبات اليوم ولكم كان يردد : ان كان الرجل العادي ملك نفسه فالرجل الممتاز ملك بلاده ، فان اقترن في غير امته فذلك اجحاف بحق الوطن .

وان كان غاية غايات علاء ان يجعل من نفسه عربيا ممتازا ليعز بلاده فغاية غايات تلك الفتاة الالمانية ان تجعل من الطفل الوليد شيئاً يشبه علاء الرجل الذي احبته ووقفت عليه عمرها كله ، وسيكون ابنها عربيا قبل كل شيء وسيساهم بقسطه في الزود عن بلاده وسيمد ايمانه بسير الرشدين ابي بكر وعمر وعثمان . وتسميه محمد علي تيمنا بمحمد اروع بطل انجبته الدنيا وبعلي بطل العروبة والمثل الاعلى للانسان ، الانسان الطيب الجواد النبيل في جميع ادواره .

لكن القدر بالمرصاد لآمالنا ولما نعره للغد ... الغد ، ملك القـــدر يلهو به كما يشاء ، يعبث ، ويا ويل من يختاره القدر ليكون لعبته والهيته .

اما « قوس قزح » فهي ذات القصة لكنها كتبت بقلم البطلة ، بينما « قدر يلهو » كتبت بقلم البطل ، وشتان مابين القلمين والعاطفتين والعالمين . هناك نرى ان المرأة حادث عابر في حياة الرجل ، وهنا نرى ان الرجل الحبيب هو حياة المرأة كلها ، وبين الكتابين يحس العربي انه شيء رائع ، وان الغرب الآفل بحاجة الى شبابه وعنفوانه وما تحدر من الاجيال في دمائه الزكية من قوة الانبعاث ، ليخلفه في حمل الحضارة الى العالم القادم ، وقد نفخ في ماديتها من روحانيته وعاد التراث الانساني بين يديه وهـــو اروع مايكون لخلق الانسان خلقا جديداً .

والسلام عليكم

الدكتور شكيب الجابري

طيف

يابعيداً هز شوقي ، بصدى صوت خفي
فاسترق السمع حيناً ، خشية منه علي
وهفا القلب اشتياقا ، ثم اهداه إلي
هاك ياصوت حنيني ، فهو ملهوف حيي

* * *

يابعيداً لا أعي منه سوى طيف طروب
يتثنى في خيـــالي ، ويداني ويؤوب
واذا ماراح يسعى للمنى ، عبر الدروب
عاد والشوق يحف ، دربه عند الغروب

* * *

يابعيداً ليس يدري ، من حنيني غير نظرة
خالها مني سلاماً ، وهي عندي الف فكرة
آه ياساحر لو تدرى بجـــرح وبعبرة
زادها البعد انسكاباً ، فغدت كالبعد مرة

* * *

واذا ما النوم أغفاني على همس نداك
جئتني أو رحت أجتاح اشتياقي للقاك
أعبر الروض لاجني ، زهرة تلثم فاك
وشذى الزنبق أفديه اذا ضم شذاك

* * *

واستفاق الشوق والحب واحلام جميلة
هزها الصوت فأحيت ، منه آمالاً عليلة
يافؤادي لك عمري ، في الهوى أحلى خميلة
لاتدعه يضـــرم اللهفة في دنيا ظليلة

* * *

دمشق ــ ناريمان زكريا

كتب وقراء

أوراق جريحة ديوان شعر منثور للاستاذ الياس الفاضل، طبع مطبعة الحياة بدمشق ١٩٥٨؛ وهو ثمرة يانعة، لجهد رتيب في التجديد، التجديد في الاسلوب، والمعاني.

اوراق جريحة

شعر منثور - لالياس الفاضل

نقد عدنان بن ذريل

ان واقعنا الادبي اليوم في تجدد، وتحرر؛ انه بالاحرى في بدء ثورته، بدء تحقيقه ذاته، فحاضر الحياة اليوم تعاوره التأثير، ومتطلبات التعبير الحديثة تكيف في تفننه؛ واذا بالابداع الادبي الحديث، من شعري، أو نثري، يحاول مسايرة هذا الحاضر، والتلاؤم مع هذه المتطلبات، وتتحقق محاولته، قوية، بهية..

كذلك نشأت اليوم فنون ادبية حديثة، مثل القصة، والشعر المنثور، والشعر الحر، تنصف الجديد من التجارب، وتنصف فيه البساطة، والدقة، فاتخذ كثير من الشعراء التفعيله بدل الوزن قوام البيت في قصيدهم، وسموا شعرهم حراً، أمثال نازك الملائكة، وعبد الوهاب البياتي، وغيرهما، وتحلل آخرون من كل وزن، وقافية، وسموا قصيدهم، شعراً منثوراً، امثال سليمان عواد، واسماعيل عامود، وغيرهما..

وشاعرنا الموهوب الياس الفاضل من هؤلاء الشعراء الناثرين الذين آثروا التحرر من الوزن، والقافية، وآثروا البساطة، والصدق، والتقرب من الواقع الحياتي، والوجداني..

موضوع أوراق جريحة وجداني، وذاتي، فقد تغنى صاحبه فيه بالحب، والوصال، كما تغنى بعذاب المحبين للهجر، والصد، ووصف الفراغ، والقلق، والحصر، ووصف ايضاً جوانب حياتيه، كالمقهى، والحانه، والكوخ..

والقصيدة في أوراق جريحة تقارب النظم الشعري، بشكلها، ووحدتها، والبعض منها قصير: هو القصيد المنثور، والبعض الآخر طويل، يحوي على مقطوعات عدة، موحدة الموضوع، او مفترقته.

يقول الاستاذ الياس الفاضل في اشياء غاليـــه: (ص٣١ ومابعدها)

ليالي والحي الذي تنوح
منه روائح الموت والشقاء
والغرفة الخشبية المشكولة على حافة الطريق
كمسافر انهكه السفر الطويل في صحراء مرملة
حيث انام واستيقظ، واكتب الشعر
كان لي دنيا سعيدة يافاتنه
ايام كنت تمرين علي
وفي انفاسك نسيم الجبال العالية
وفي عينيك حنان بوهيمي الجناح..
كنت اصوغ من قلبي
اقماراً كثيرة، واغنيات بنفسجية
واصنع من فرحي دروباً، وبحوراً، وزوارق
وكنا كالفجر نسافر، ونرقص ونغني.

وفيها يقول:

ايتها الاشياء التي تجري في دمي
يا ضفاف بردى والشوارع التي عرفناها معاً
يا رسائل الحب وأوراق الورود الذابلة الحمراء
ايتها الذكريات الشاحبة شحوب السماء في الشتاء
ايها الميناء الذي رست فيه سفينة عمري
ليتني ريح شتائية عاصفة
تقتلع المرساة من اعماق الرمال
ونرمي بزورقي الغافي على الشاطىء الى وسط الامواج
لاغزل من ثوراتها ورباً تمتد الى ما لانهاية
وكوناً غارقاً بالحب، والعطر، والبيلسان..

الاسلوب قوي، رصين، المواجيد فيه اصيله، معقلة، والصور دقيقة، معبره، والجرس بديع آسر..

البقية على الصفحة «٤٩»

نموذج البطل في الشعر الجاهلي

بقلم

سعد صائب

مستمعي الكرام [1] !
قبل عشرة ايام انتظم ادباؤنا في وفودهم ، وانطلقوا من شتى اقطارهم ، منتجعين « الكويت » هذا البلد العربي الأبي ، الرابض مزهوا على خليجنا ، ليقيموا لأدبنا مهرجانه القومي الرابع ، ولينصرف همهم الى بحث « البطولة » في ادبنا قديمه وحديثه .. وخلال هذه الايام العشرة وانظارنا تتهاوى على هذا البلد العربي الحبيب الذي اضحى منتدى ادباء العرب ، وملتقى شعرائهم ومفكريهم .

ولقد بدا لي بعد ان ارفض المهرجان منذ يومين ، وتغشتني نفحة سرت الي بما بث ادباؤنا من معاني البطولة ، وبما شخصوا من مواقفها ، وبما جالت اقلامهم السمحة في تصويرها ، في احساس دقيق ، ومعرفة استوت في اذهانهم بما ملكوا من براعة قول ، واحاطة موضوع ، وصحة رأي ، تأدت اليهم من تقليب النظر وطول المراجعة ، فيما حكاه ادبنا عن بطولاتنا في فترات متباعدة من تاريخنا تبدأ في عصرنا الجاهلي الاول ، وتنتهي في عصرنا الحديث ، وفيما رواه ادباؤنا عن هذه البطولات وما وصفه شعراؤنا قديمهم وحديثهم في حذق ومهارة يتصلان بفنهم ومواهبهم ، وفيما افتنوا في افانين من القول والوان من القصيد نرضى عنه ونقدره ونتغنى به ونطرب له ، لأنهم ادوه اداء جميلا رائعا استلهموه من جيشان عواطفهم ، وثورات ارواحهم ، وصراع نفوسهم ، وعمق تجاربهم وجهارة اصواتهم حتى قال عنه احد النقاد الغربيين المنصفين ان الشعر العربي « انقى شعر عرفه العالم ، بما حوى من العواطف الرقيقة ، وهو اقرب الاشعار الى معاني الرجولة والشرف والحياء الصحيح والايمان القوي » أجل .. لقد بدا لي – على ضوء هذا كله – وبما تهيأ لي من تصفح بطولاتنا التي صورها ادبنا ، وعاشتها حياتنا في ازمان متفاوتة ، وعهود متعاقبة ، ان اتحدث اليكم الساعة بما احسب انه قد غشي ادباءنا المؤتمرين من نفحات هذه البطولات كما غشيني ، بما ادته اقلامهم فيها من رائع الحديث ومتخير القول ومصطفى الكلام خلال الايام التي تلاقوا فيها على صعيد هذا البلد العربي الطيب ، وقضوها فرحين هانئين بمهرجانهم !.

[1] حديث اذيع مساء يوم الثلاثاء في ٣٠/١٢/٩٥٨ من « اذاعة دمشق » .

مستمعي الكرام !
حين نعوذ بمعاجمنا العربية القديمة نسألها عن معنى « البطل » في لغتنا تجيبنا المعاجم قائلة : « رجل بطل بين البطالة والبطولة شجاع تبطل جراحته فلا يكترث لها ، ولا تبطل نجادته .. وقيل انه سمي بطلا لأنه يبطل العظائم بسيفه فيبهرجها ، وقيل سمي بطلا لان الاشداء يبطلون عنده ، وقيل هو الذي تبطل عنده دماء الاقران ، فلا يدرك عنده ثأر من قوم ابطال » .

وواضح من هذا التفسير ان « البطل » عند اجدادنا العرب يعنى الشجاع الشديد القلب عند البأس ، الذي يتجسد فيه مثل قومه الاعلى ويقويه بفعله ، ويحققه بجرأته واقدامه وشجاعته ، كما يتميز بمواهبه الفذة ، وخلقه القويم ، وتبنيه مصلحتهم العامة ، وذوده عن مبدأ الحق والعدل فيهم . وبالتالي فان لفظه « بطل » تتضمن وجود نظام اجتماعي ، وقمين من تتجلى فيه صفة البطولة ، هذا النظام ، ووقفه حياته لتحقيقه ، وبمعنى آخر تقويم اعوجاج النظام الفاسد على ضوء المثل الاعلى المتجلي في نفس البطل . ولذلك احتل البطل في عهدنا الاول ، عهد البطولات مكاناً مرموقاً بارزاً . واذا ماشئنا عقد مقارنة بين مكانة الابطال عندنا ومكانتهم عند سوانا من الامم ، نجد ان البطل عند اغلب الامم القديمة وبخاصة عند اليونان يحتل في اساطيرها ودياناتها المقام المرموق الذي يحتله عندنا ، وان كنا نلحظ في « الياذة » هوميروس » ان لفظة بطل انما وضعها الشاعر اليوناني خصيصا للآلهة المحاربين الذين ابلوا في ميادين الحرب بلاء حسنا ، ولم يضعها لاناس ابلوا في الحرب كما ابلت الآلهة ، فهو ميروس اذن قد مجد البطولة في الآلهة ولم يمجدها في الانسان ، ومبعث ذلك كما يخيل الينا خلو الحياة اليونانية من البطولة والابطال ، لذلك نراه يصوغ اساطيره من اعمال الآلهة فحسب كذكرى تتناقلها الاجيال جيلاً اثر جيل مندفعة بالاقتداء بها والنسج على مثالها . وهو بذلك يغاير النموذج الذي صوره شعراؤنا الذين اعتبروا البطل بشراً سوياً تجسدت في ذاته بطولة قومه ، وجاءت انعكاساً لحياتهم وتعبيراً حياً عن مثلهم العليا التي عاشوها . ولذلك لم نعبد نحن البطولة التي تمثلها الآلهة كما عبدها اليونان ، ولم نصغ حولهم الاساطير كما صاغوها ، بل اجللناها في الفرد العربي ذاته الذي مثلها . هادفين الى ماتتركه انسانيتنا البطل من اثر فعال في حياتنا ،

مؤمنين بان هذا الاثر هو الاساس الذي قامت عليه حياتنا ، وتحققت فيه مثلنا ، وزاد من تعلقنا بالقيم الخلقية ، وانمى تحسسنا بهذه القيم ، وفرض علينا الاخذ بأسبابها في سبيل بناء مجتمع عربي افضل .

ونحن ان جارينا ما اوجب مؤتمر الادباء العرب الرابع بحثه من وصف البطولات في ادبنا قديمه وحديثه فلن يستجيب لنا الوقت الذي حدد لحديثنا ، ولن نلم بدراسته الالمامة المرجوة ، وحسبنا ان نأتي بنسائم من عصر معين بالذات من عصورنا تستجيب له القلوب ، وتكون مفتاحا لكل مغلق من مغالق حياتنا الجديدة ، مع حرصنا على التنويه بان ادبنا ككل ادب حي قد تطور في موضوعه تطور امتنا العربية وقطع معها مراحل الحياة الانسانية «فهو في الجاهلية انغام صبا ، وحماس فتوة وعواطف اثرة ، وفي الاسلام اناشيد جهاد وثوران عصبية واطماع حياة ثم استحار شبابه واكتمل في صدر الدولة العباسية ، فظهر في شعر بشار وابي نواس واضرابهما عبث شباب واغاني طرب ومظاهر ترف ثم عض على نواجذ الحلم واكتهل في اواسطها فبدأ في شعر ابن الرومي وأبي تمام والمتنبي وامثالهم دروس تجربة ونتائج حكمة وخواطر فلسفة ثم ادركه الهرم في اواخرها فظهر في شعر المتأخرين تمويه صنعه وزخرف شيخوخة ومعالجة روح » (١) واخيرا تبدت في عصرنا الحديث حيوية ادبنا ، وانبعث في طور جديد متمشياً مع وعي امتنا وجودها مسايراً تفكيرها ، مصوراً اهدافها وامانيها وما تنزع اليه ذاتها الخيرة بعد ان برزت لدى شعرائنا المعاصرين وكتابنا وقصاصينا القدرة والقابلية لتصوير وعينا القومي المتفتح وكفاحنا في سبيل حريتنا وصراعنا المرير ضد الطامعين بنا مما اذكى فينا روح التضامن والتآخي في تحقيق وحدتنا العربية الشاملة التي صبت اليها نفوسنا وتطلعت اليها ظامئة افئدتنا .

وانه ليحلو لنا ان ندرس نموذج البطل الذي ساد مفهومه ادبنا خلال العصر الجاهلي ، وهو العصر الذي برز فيه هذا النموذج بروزاً نامياً ، وعبر عنه شعراؤنا آنذاك تعبيراً صادقاً لا باعتباره اسطورة تخيلها وهمهم ، بل باعتباره حقيقة ومطلباً يتسقان ابلغ اتساق مع مطالب عصرهم ، ويتفتح بهما وجدان معاصريهم .

وليس من شك في ان ثمة مثلاً اعلى ساد عصرنا الجاهلي ، وتحدد هذا المثل فيما نسميه « بالفارس العربي » ويبدو ان فرقا واضح المعالم بين مفهوم الفارس CheVaiier عند الغربيين ومفهومه عندنا ، فبينا نجد ان ذيوع الاقطاع واستفاضة علائقه خلال القرن الحادي عشر قد ساهما مساهمة فعالة في توطيد دعائم الفروسية الغربية وساعدا مساعدة اكيده على تنظيمها ومنحاها الصفة الشرعية التي تدل عليها ، وبينا نلقى الكتائب التي مثلت الفروسية تنضوي طائعة مختارة تحت سيطرة الاقطاعيه ونفوذها المفروضين آنذاك ، وان واجبها التي تتمثل بالاحساس بالشرف والذود عنه ، وتتكشف عن الشجاعة والوفاء ما كانت يحملها الا نتيجة طبيعية لوجود اولئك الفرسان اتباعا ارقاء لاسيادهم الاقطاعيين ، مما يدل دلالة واضحة على ان الفروسية لم تنبثق من صميم الوجود الغربي ولا فاضت بها طبيعة حياة الغربيين ، ولا اعربت عنها اخلاقهم ومثلهم ، بل جاءت نتيجه نوازع ومطامع واهواء فئة قليلة شاءت ان تفرض سلطانها وان تحقق اغراضها الخاصة ومنافعها وان تحمي نفسها فخلقت كتائب من مواطنيها تنهض عنها بعبء القتال وتدفع عنها اذى اعدائها . فالفارس الغربي اذن كان عبدا لسيده الاقطاعي قد تمرن على الشجاعة فاكتسبها اكتسابا وتدرب على الولاء فتطبع به تطبعا ، وارغم على الوفاء ولم يكن سجية من سجاياه بخلاف الفارس العربي الذي لم يكن قط تابعا ولا رقا بل كان حراً لم تخمد في حياته جذوة الحرية ، بل نمت معه نمواً طبيعيا ، واكتسب جهاده في سبيلها طابع حبه للحياة ، وايثاره قومه واستقلاله في نفسه وانفته من ان يغدوه موضعا لاية سلطة تفرض عليه ، او اي سلطان خارجي ينال من كرامته وابائه وشممه ، ويحول دون ارادته وتوكيد كيانه الفردي . فكان الفارس العربي سيد نفسه يعبر عن حقيقة امته وعن عزيمتها ، وشجاعتها ويصور خلقها المتجلي بنجدتها وكرمها ، ويدل بأفعاله واقواله على ارادتها وبأسها ، ويترجم ترجمة صادقة عن حياتها البطولية التي تحياها .

ولنستمع الى الشاعر الفارس « عمرو بن معدي كرب » الذي يصور موقفاً من مواقفه في القتال وكأنه يصور المثل الاعلى الذي شمل قومه وساد عصره حيث يقول .

تاريخ الادب العربي لاحمد حسن الزيات الطبعة الخامسة ص ١٩٦-١٩٧

ليس الجمال بمئزر | فاعلم وان رديت بردا
ان الجمال معادن | ومناقب اورثن مجدا
اعددت للحدثان سابغة | وعــداء علندى
نهداً وذا شطب يقد | البيض والابدان قدا
وعلمت اني يوم ذا | ك منازل كعباً ونهدا
قوم اذا لبسوا الحديد | تنمروا حلقا وقــدا
كل امريء يجري الى | يوم الهياج بما استعدا
لمــا رأيت نساءنا | يفحصن بالمعزاء شدا
وبدت لميس كأنهــا | بدر السماء اذا تبدى
وبدت محاسنها الــتي | تخفى، وكان الأمر جدا
نازلت كبشهم ولم | ار من نزال الكبش بدا
هم ينذرون دمي وانذر | ان لقيت بان اشدا
كم من اخ لي صالح | بوأته بيدي لحــدا
ما ان جزعت ولا هلعت | ولا يرد بكاي زندا
ألبسته اثوابــه | وخلقت يوم خلقت جلدا
اغني غناء الذاهبين | أعد للاعداء عــدا
ذهب الذين احبهم | وبقيت مثل السيف فردا

مستمعي الكرام !

هذا نموذج بطولي واحد من عدة نماذج يزخر بها ادبنا في العصر الجاهلي، وتمتلىء به الدواوين التي خلفها لنا شعراؤه نلقاها لدى السادة والاشراف الفرسان الذين نظموا الشعر، كما نلقاها لدى العبيد والصعاليك الفرسان الذين تفاعلوا مع مجتمعهم اشد التفاعل وشاركوا في احداثه اعمق المشاركة، بعد ان مارسوا طاقة البطولة التي شاعت في زمانهم. وكانت حياتهم تعبيراً حياً عن الفترة الصاخبة التي عاشوها، وكان شعرهم تسجيلاً اميناً لحياتهم بخاصة وحياة امتهم بعامة شمنوها نظرتها البطوليـة التي بنوها على تجاربهم المستمدة من واقع امتهم واستلهموها من وجودها، ومما اكتنف هذا الوجود الحي من صراع دام، وما فاض به من معطيات بطولية قل مثيلها، اتصل بها شعراؤنا في ذاك العصر اتصالاً مباشراً، وتأثروا بها تأثراً عميقاً وعاشوها بامتلاء وزخم، فكانت معيناً ثراً لا ينضب استمدوا منه مادة غزيرة لفهم الذي عبروا فيه ادق تعبير واصفاه واصدقه عن روح عصرهم، وعن المثل الاعلى الذي غلب عليه وعرف به.

دمشق سعد صائب

اوراق جريحة ــ بقية

ويقول في اوراق جريحه، سمو (ص ٦٠)

ما اتعس الانسان الذي لا يغني
وما اسخف الحياة
عندما لا تكون غناه من القلب للقلب
عندما لا تكون انغاماً عبقرية
تهز العقول والأبدان
والحانا فذه
تنقل الى اجواء التأمل الروحي العذب
بالغناء اسمو وارتفع
وأصير اشعاعاً عبر نور الله..
أواه.. كم احب ان اغني
اغنيات حب لك
لعينيك يا حبيبتي !

وقد غنى صديقنا الاستاذ الياس الفاضل، فأطرب وأعجب.. اننا نحيي صدور هذا الديوان الموفق، اوراق جريحة، ونحيي منحى صاحبه التجديدي فيه، وبساطته، وصدقه، عسى ان يفيد واقعنا الادبي من فنه، وأدبه، والله ولي التوفيق.

دمشق ــ عدنان بن ذريل

بقية ــ البطولة في الادب

دائما مصهورة نقية.. ان وجود هذه الجزر الصغيرة فوق اليم الطامي هو الذي زيف وجود هذا اليم لانه مكن من اقامة الجسور فوقها لتنطلق عليها القافلة التي استيقظت لتدخل التاريخ مرة اخرى، ان قيمة هذه الجزر، قوتها، من قوة الاسس التي ترتكز عليها وعمقها.. انها قد تكون صغيرة ضيقة ولكن كل ارض القاع مرتكزها.. انها كانت كالذروة التي تنبىء عن الكتلة الضخمة التي هي نهاية لها.. وقد تمثلت هذه النهاية في صفاء السلوك وفي صفاء المعتقد وفي صفاء اللغة.. واحسب ان هذه، ثلاثتها، يجب ان تكون مرتكزنا نحن الجديد.

ان غرض هذه الابحاث ليس بالغرض النظري وليس من الغرض كذلك تطبيق نظريات معينة على واقع خاص متميز.. انها ــ فيما فهمت منذ طرح الموضوع ــ تفسيراً للبطولة بهذه النحو من التفسير او ذاك، وليست عرضاً لصور البطولة من حيث هو عرض، بمقدار ماهي محاولة لاستخلاص المثل الاعلى على فترات التاريخ العربي. لا اقول لصياغة المثل الاعلى فما يصاغ هذا المثل، وانما هو ينطلق كشعاع دافق ممتد بين يدي الجماعة في طريق سيرها.. ونحن انما نعمل ونسافر ونكتب لنطلق هذا المثل الاعلى بين يدي طريقنا الجديدة طريق الوحدة.. ايها السادة ــ لعلنا فعلنا ذلك...

الدكتور شكري فيصل

خاطره الليل

في امسية موحشة .. قال يناجيها ..

احبها ..

طيفاً .. يجسمه خيالي

احبها ..

دفقه .. حارة في فؤادي

فيالهفي ..

كم ناديتها

من خلف الظلام .. والضياء

فتهادت الي ..

سكرى بحديثي .. واغنياتي

ونثرت ..

من حولي .. اجمل الاماني

وسطرت

في نفسي .. اعذب الذكريات

فيا وحيي .. والهامي

كم طربت لهمسك .. الماضي

وكم قلت ..

انت نغمه تسري في كياني ..

فبالله .. لاتقطعي .. وصلاً

انا له في اشتياقي

ولا تبددي حلماً ..

هو لي كل زادي ..

هيفاء عزيز كاتبي

الصديد ... وارض الديدان

قصة

بقلم ياسين رفاعية

تهدى الى الصديق الاستاذ يوسف شقرا

يمضي اليوم ويعقبه يوم آخر ، وتمتد الحياة كالفضاء ، هي بعيدة النهاية . لابد ان يصيبني الاعياء يوماً . فأسقط وينتهي كل شيء .. وتستمر الدوامة في الالتفاف . ويستمر السيل في الاندفاع .

انني احاول ان أغرف من الحياة ان اكون شيئاً . لكن كل الذين حولي اجدهم تافهين . تكديس النقود فقط همهم الوحيد . يبنون سعادتهم على شقاء الآخرين .

انسانيتي ضائعة . تمتص الفراغ والعدم . تشرب السم بلا موت . ست ساعات اصلب كالآلة . يدي تعمل . فكري يجتر الماضي الأبله . ست ساعات تمر متشابهة . ثم انطلق الى المقهى . فأقبع من جديد كالدمية . تتحرك بعض اعضائها حركات آلية .

المقهى ينتصب في زاوية الشارع يملأ انوفنا برائحة الدخان . يربض بداخله الكسل والرتابة والحياة المتمثلة في وجه امرأة حلوة تمر عابرة .. فيصفرون . وتتدله شفاههم كالمعتوهين .

تصور الشبق المجنون القابع في حيوانيتهم .

واليوم . كالعادة ، كنت هناك . وثرثر الذين حولي :

ـ الحقها .. حاول ان تنالها . أرها محفظة نقودك .

ويصيح آخر مشيراً الى رصيف الشارع :

ـ انظروا كم هي جميلة .. وكم هو قبيح .. كيف التقيا .

قال ثالث

انها ضعيفة الثقة بنفسها .. فوجدت الرجل الذي تشعر انها متفوقة عليه .

ـ هذا ذكاء

ـ بل غباء

ـ دعونا منها .. انظروا الى هـــذه . ما أروع هذا الشوال . وهذا الصدر الذي يتنهد و .. و .

قال احدهم وهو يمضغ لفافة

ـ أنا اعرفها . ان زوجها ثري . ومع ذلك تخونه مع السائق . واكثر صديقاتها يعرفن الخبر . لكنهن لايستطعن ان يقلن شيئاً . انها تدعوهن دعوات كثيرة .. وتشاركهن بنشاط « اجتماعي !! » فيزرن الملاجيء والايتام بسيارتها التي يقودها السائق الشاب .

فأجاب الآخر

ـ هذه رواسب المجتمع .

ان المجتمع لطفل ساذج . تخدعه بقطعة من السكر . تغريه بلوح من الشوكلاته . عندئذ يكف عن الصراخ والبكاء .

ويتبرم الذي استند الى الطاولة بيديه ، فيصيح :

ـ كفوا عن هذه الثرثرة . حدثونا عن آخر الاخبار

فقال واحد بلهجة جدية

ـ اسقطت مدفعيتنا طائرة معادية مجهولة الهوية على الحدود اللبنانية

ـ لابد انها طائرة اميركية

ـ انهم لن يعيدوا الكرة .

فيدمدم احدهم بهدوء .

ـ أنا اكره الحرب .. لانني احب هذا المقهى .. وهذا المكان بالذات . ان السلم هادىء . انا احب الهدوء .. احب ان ارى وجوه النساء ضاحكة ، لايرتسم عليها الفزع . آه . ما أحلى النساء المكتنزات

* * *

أخرج من هـــذا الهنديان ، لايتغير حديثهم . المرأة دائمـــاً . يتلقفني الشارع الصاخب . احياناً .. احب ان احيا مع ذاتي . اذكر « غالية » تلك المرأة التي احببتها ذات يوم . ان صورتها الحزينة . لاتزال تنظر الي من محفظتي الجلدية الصغيرة وكلما حلالي ان اتذكرها احب ان اقرأ ما كتبته خلف الصورة بخط مرتبك « اليك ياحبيبي صورتي لتتأكد انني لك للابد » تأكدت الآن انها لم تستطع . كانت تقول لي دائماً : انني انسانها الوحيد . ولكن عندما لاح لاهلها ذو الكرش المتنفخ والصندوق الممتليء بأكداس النضار استطاع ان يغريهم فباعوها له ليضمها الى حظيرة العبيد في بيته الكبير .

حاولت بعد مدة ان تتصل بي .. تعرض علي خيانتها . تقدم الى فراشي جسدها الذي طالما كانت تمنع عني ذات يوم ملامسة يدها .

رفضت . أنا احبها حتى العبادة .. لم اكن مستعداً ان القي بسمعتها الى الحضيض .. ان الاغراق في الخيانة سيؤدي

حتماً الى الحضيض . انا لا أريد لها هذه النهاية .. سأتركها في
مخيلتي ذلك الملاك الذي احببته حتى العبادة .

* * *

قدماي تجرانني عبر الشوارع بلا هدف .

فجأة .

انطلقت صفارة الانذار . تزمجر
في غارة وهمية . تصرخ كأم فقدت
وليدها .

ساقت الشرطة القطيع بلا غاية
انسقت معه . وقعت من رأس درج
حتى قبو مظلم . انحشر الناس
فيه متلاصقين كالسردين . ضغطت
امرأة طرية اللحم على صدري .
آثارت في الشبق . شعرت بفورة
عنيفة في جسدي .

حاولت ان اتملص . دفعت بثقل جسدي الى الامام .
لكن هذا الضغط اعطى عكس المفعول . اذ تماوج القطيع .
ثم دفعني اكثر نحو الحائط . التصقت به والتصقت المرأة
بي اكثر .

ان ملامحها لا تبدو لي واضحة . لكن جسدها لدن طري .
احسست بفخذيها يلتصقان بفخذي . ظهرها يغوص في صدري .
كدت اختنق فقد ضاقت انفاسي .

ازداد التصاق المرأة بي فوددت لو احتضنها واطرحها ارضا .

تساءلت : لماذا تتجاهلني .؟

صرخ الشبق في جسدي الحيواني كوحش مفترس جائع .
اختنقت انسانيتي . فضغطت بجسدي على المرأة . لحمها الطري
مثير للغاية . وددت لو أنشب اظافري فيه . واتركه يتقيأ الدم .

ضغطت رأسي بشدة الى الجدار عندما انهارت انسانيتي
المفقودة . كانت المرأة قد انطلقت لتوها مع المنطلقين لدى
سماعهم صفارة الامان

« آه .. ما الذ تلك المرأة . ما اروع لحمها . » ......

الفيتني بعد لحظات في قبو مظلم كالحياة . كالعالم المخنوق .
فجأة ، انا وحيد . كلهم يحبون الحياة . انهم يمثلون الآن
كيف سيحافظون عليها في المستقبل . عندما يهاجمهم عدو ما .
تزاحموا هنا لاجل الحياة وخرجوا الآن لاجل الحياة ذاتها . لم
يدركوا انهم في الحقيقة ايضاً يمثلون ولا بد ان تسدل
الستارة على الفصل الاخير حيث يسقطون الى القاع .

انني الآن وحيد . صعب على الانسان ان يحيا وحيداً .

ماقيمة الحياة اذا لم يشاركنا
الآخرون افكارنا .

؟ شعرت بنشاط وانا منطلق
من القبو الى شارع الحياة على
الرغم من القذارة . من الانسانية
المفقودة . من الذات الضائع
بين ساقي .

* * *

مرت جنازة يتبعها اناس بدت
على وجوههم سمات الحزن . « كل
الوجوه مزيفة وما اكثر الاقنعة . »
قهقهت من الصميم . وفجأة . خنقت الضحكة . عندما رمقني
بعضهم بنظراته شرسة . كان الناس العابرون مثلي يقفون
باحترام ويرفعون اكفهم باتجاه السماء ويدمدمون « ما أغبى
اولئك الناس . يشيعون ميتهم ويتجولون به في شوارع المدينة ،
لكأنهم يصرخون انظروا الى ميتنا . انه يودع دنياه . »

الموت ليس نهاية لائقة بالانسان ، الجسد سيفنى وينتهي
« تنتهي حياة الانسان بموته » نجر أنانيتنا حتى القبر . نريد من
الاقرباء . من الاصدقاء : أن نجول بفكرهم حتى بعد موتنا ،
ويزورون قبورنا وهم يفعلون لاشك . لاجل ذاتهم انفسهم
ليقنعوا الاولاد والاحفاد . ان هذا أمر محتوم لنتخلص الى
امواتنا .. حتى اذا ما انتهى امر وجودهم ماتوا مطمئنين الى
اناس سيهتمون بأمرهم بعد موتهم .

يالقذارة هذا الانسان . يالتفاهته ، حتى بعد موته يريد
الاستمرار في حساب الآخرين . يريد الاستمرار في حياة لامعنى
لها .. مع انه انتهى في حساب هذه الحياة .

* * *

حياتي يوم وليلة . كل صباح أشعر كأنني ولدت على فراش
من شقاء . الماضي ليس الا حلماً لن ينتهي الا بنومتي الابدية .
حلماً مخيفاً مرعباً . في هذيان مستمر . في فزع دائم

* * *

أود ، بشجاعة ، لو أستطيع ان افعل شيئاً . هؤلاء الذين استغلوا الحياة حتى نزلوا بها الى هذا الدرك الحقير .. جعلوا كل شيء فيها مادة .. واشتروا الانسان كما يشترون القطيع .

مدينتي اليوم آلة كبيرة . خلفها اولئك الذين اشتروا الانسان . يقودونها كيفما يشاؤون . كم أود ان اخنق هؤلاء . ان اشنقهم . لاعيد الى نفسي ونفوس الآخرين امثالي : الاعتبار الانساني . لكنني لن أستطيع . ان هذه الآلة . تأخذني الى محركاتها الهائلة . وتخنق بي كل صوت .

* * *

حياتي يوم وليلة . غمر الظلام الكون الآن . هذا هو الجزء الثاني والاخير من حياتي . مازلت اتسكع . مازالت المدينة تلفني في حنايا طرقاتها المتعرجة كأفعى خبيثة .

« سترسب الحياة كما يرسب الصديد في القاع . سأنتهي الى قعر الارض جيفه نتنة لا اكثر . فما فائدة هذه الحياة وما معنى وجودها .؟ »

ان البناء الشاهق الذي أستند الى جداره الآن . له حفرة عميقة في نفسي . ان جبني يتمثل امامي كشبح مخيف كلما تذكرت ماحدث في الماضي .

أنا مقتنع بعدم جدوى حياتي منذ زمن طويل .. انني احاول واحاول ان أفعل شيئاً .. لكنني افشل في كل مرة . يبدو انني الوحيد الذي يفكر ان يثور طالباً انسانيته من الآلة وقائدي الآلة . لذلك ذهبت صرختي في صحراء من جليد . فرأيت ان اضع حداً لحياتي منذ زمن طويل . كنت اشعر بتفاهتي وحقارة الحياة التي احياها . لا شيء يجعلنا نسمو بانسانيتنا . جميعهم يسعون وراء نبع المذهب . لايهم مطلقاً ان يدوسوا على عنقي . ان يجعلوني جسراً للوصول . طالما الغاية الاولى والاخيرة ان يسعدوا على حساب الآخرين . فبأي شكل هذه الحياة التي نحياها وما معناها علي ان اغادرها . ليس فيها مايستحق العيش .

قررت ان انتحر . ان اخطو خطوة واحدة نحو الفضاء من سطح ذلك البناء الذي حفر حفرة عميقة في نفسي . كان البناء شاهقاً . بدت لي السيارات في الاسفل كالسلاحف . تنزاح فوق الاسفلت الاسود . والناس على الرصيف كالذباب حول الجيف . تصورت في لحظات جسدي ملقى على الارض يتفجر الدم منه بغزارة . والقطيع حولي كالحشرات حول جيفة نتنة . نظراتهم ممتلئة بالرثاء والشفقة . كأنها عيون تخمد خلفها النار بدا كل ذلك لي . من رأس سطح ذلك البناء فارتددت الى الوراء . نزلت الدرج مذعوراً . ولما عادت انفاسي الى طبيعتها . تساءلت : لماذا أريد ان انتحر .؟ أليس الانتحار اعترافا بجدية الحياة . اعترافا بقيمتها . انها في الواقع ليست ذات قيمة . فما معنى ان يهرب الانسان من شيء لا قيمة له .

ومنذ ذلك الوقت . خفت الموت والابنية الشاهقة . والسيارات التي تنزاح فوق الاسفلت الاسود كالسلاحف .. واصبح مجرد ذكر الموت يرعبني . يجعل صدري يخفق بعنف كلما ذكرته . أتمنى لو اموت فجأة . هكذا ، بحادث ما . بسقوط جدار فوق رأسي . بسيارة تصدمني من مؤخرتي صدمة قوية انتهي بها مباشرة . لا أستطيع ان اواجه الموت عينا بعين .. اتمنى لو ان الانسان عندما يموت يندثر مباشرة وتنتثر اشلاؤه . ذرات في الهواء .

* * *

أرهقت .

كل حياتي ارهاقا . شريط يمتد من الشقاء . ان زجاجة عرق كافية لان اهرب بها من الحقيقة « مؤلم ان نجد حقيقتنا تافهة لا معنى لها في عالم ميت » .

ان قدمي تسوقاني نحو الحانة الرخيصة التي تبتلعني كل ليلة . اسير اليها بدون ادراك .

انني موقن ان العرق سيوضح لي وجودي بصورة أكبر .. الا انني اذهب مرغماً لارتشف الكأس .

الجث حولي عن شيء له معنى . اضحك اذ لا أجد الا كتلاً لحمية في وجوهها حفر حمراء ترتسم على محياها بلاهة مقرفه . تنداح فوق الطريق كموجات من القطيع لا تنتهي .

آخر الليل . اخرج من الحانة . يلفحني هواء بارد . أتلوى كمن طعنوه بخنجر . فأشعر بحاجتي الى صدر امي لأدفن رأسي فيه وابكي بحرقة .. انني اتلوى واتلوى ، ويمتد الرصيف امامي بلا نهاية « لانهاية للشقاء » ويبدو لي بيتنا في صدر الزقاق كشبح مرعب . نهاية المطاف الى البيت . في كل يوم وليلة . الحياة تنتهي بعد سير طويل الى حفرة !!

ياحقارة هذه النهاية .

ويتلقفني فراشي البارد الصغير . الطعنة تصرخ في أحشائي .

البقية على الصفحة « ٦٣ »

البطولة في أدب الاطفال ـ بقية

من الاجيال السحيقة توارثتها الجدات عبر القرون، وقد يكون في بعضها متعة واذكاء للخيال، ولكن قد يكون في بعضها الآخر خلق للمخاوف بما يجري على ايدي الابطال من المردة والشياطين واللصوص والفتاكين. وهكذا نصبت الجدة نفسها مربية وأديبة دون علم، ولم تتخل حتى الآن عن مكانتها بعد ان أنشئت دور الحضانة والرياض، وبعد ان تولت الاذاعات العربية توجيه الاطفال في هذه المرحلة بألوان من القصص والاناشيد.

وقد استمعت الى القصص التي تلقى في الاذاعة فأعجبني منها اشياء: اعجبني ما فيها من خيال جامح يناسب الطفل في هذه المرحلة، فالطيور تتحدث، والحيوانات تغني والجماد يتحرك، وأعجبني اعتمادها على التصوير الصوتي لكل هذه الكائنات فأن هذا التقليد ينقل الطفل الى جو مثير، فيخيل اليه أنه يستمع الى ذوات الاشياء وأن ما يسمعه حقيقة واقعة. وفيها غير ذلك أستغلال للغناء، وهو بنغماته يضفي على القصة من الامتاع ما الاطفال بالسماع، وتحول بينهم وبين العبث قبل المنام: رواسب علك لب الطفل ويستحوذ على وجدانه. وهكذا تستطيع الاذاعة بهذا التأثير القوي أن تقدم من الابطال والاعمال ما تراه مفيداً لخيال الطفل، مؤثراً في اخلاقه.

ومن الواجب أن نشير كذلك الى ما تقوم به مدرسات الحضانة والرياض من تقديم الغذاء الادبي في هذه السن المبكرة غير أني لا أعفيهن ولا أعفي الاذاعة احياناً من الخروج عن مستوى الاطفال: فليكن البطل في قصص الاذاعة والمدرسات دجاجة تتحدث، او وردة تغني، او قطاً يعاون طفلا، او عنزاً تشتري من الحداد قرنين لتدافع عن ابنها، وليكن الغرض من كل ذلك تنمية الخيال وتعريف الطفل بمقومات بيئته، ولينثر القاص في تضاعيف الكلام ما يريد من مثل واخلاق. ولكن الخروج عن البيئة في هذه السن ايذاء: فالاسكيمو، وسكان الادغال، ووحيد القرن حقائق اذا نقلنا اليها الطفل قبل الاوان، كان مثلنا مثل من يقدم الدسم للممعود يزيد من علته ويؤخر شفاءه.

ويجب ان نعلم ان كثيراً من قصص الجدات بلاء أي بلاء اذا كان ابطالها من الاغوال والمردة والسفاكين، وان قصة الطفل الذي احترق عندما خالف أمه وأمثالها بما تتورط فيه بعض المدرسات لصغار الاطفال ضارة، لانها مثيرة لمخاوفه. ولعلنا نعلم ان غريزة الخوف في هذه الفترة من الحياة تبلغ الغاية من الحدة والعنف، ومن واجبنا ان نهدىء من ثورتها بما نصطنع من قصص نتخير ابطالها من الابطال الشجعان، ونجري الاحداث على ايديهم فيرى الطفل انهم لا يرهبون الظلام، ولا يخشون السكون، ولا يخافون الحيوانات الاليفة والحشرات الضعيفة، فيحاول تقليدهم مهدئاً من حدة الخوف التي تسيطر عليه.

وقد رأيت فيما قرأت قلة واضحة في هذا النوع من القصص: وربما وقع القارىء على قصة يجد في بدايتها صلاحاً لهذه المرحلة فاذا مضى في القراءة وجد في تضاعيفها خروجاً على ما يناسب الصغار، وقد يجد في بعضها الآخر اسرافاً في الطول يخرجها عن الملاءمة لاطفال في سن الخامسة هذه قصة مترجمة أسوق صوراً منها على سبيل المثال. وجدت في بدايتها المرآة السحرية تتحدث فقلت: انها لاطفال في سن الخامسة. فلما قطعت في قراءتها شوطاً وجدت في ثناياها حديثاً عن الحسد والغيرة وهي صفات غير مفهومة لاطفال هذه المرحلة، وقد تضمنت القصة غير ذلك احداثاً لا تناسب الاطفال الكبار، تقول القصة: «وكان عند هذه الملكة الجديدة مرآة سحرية تنظر فيها وتسألها: يامرآتي الصغيرة: هل في البلاد أحد أجمل مني فتجيبها المرآة: سيدتي الملكة أنت أجمل سيدة في البلاد جميعها ...» ثم تتتابع احداث القصة الى أن يقال: «غضبت الملكة غضبا شديداً وامتلأ قلبها بالغيرة والحسد والغيظ وكرهت «سنوهيت» اشد الكراهية وقالت في نفسها: يجب أن تموت سنوهيت هذه يجب أن تقتل» ثم ذكر في القصة بعد ذلك أن الاميرة نامت خمس سنين دون أن تأكل او تشرب. فنحن اذا نظرنا الى القصة على ضوء ما نعرف من اتجاهات الطفولة، ادركنا انها مترجحة بين ما يلائم الكبار وما يلائم الصغار فهي اذاً بصورتها الراهنة لا تلائم اي فريق من الفريقين، غير اننا نستطيع أن نقدمها للكبار للتسلية، وتزجية الفراغ محتملين ما نتعرض له من نظرات التهكم عندما يقرأ الطفل نوم الملكة خمس سنين دون أن تأكل او تشرب، وعندما تتحدث المرآة عالمة بالغيب، ومخبرة بالحقيقة.

وأعود فأقول: ان البطل في هذه المرحلة يجب ان يكون طيراً معروفاً او حيوانا أليفا او طفلا او احد الاقرباء، وان يراد ببعض القصص التقليل من حدة الخوف والتعريف بالبيئة، وتنمية الخيال.

« ثانيا » الطفولة المتأخرة (من السادسة الى الثانية عشرة)

اننا لنقرأ في وجه الطفل في السنتين الاوليين « السادسة والسابعة » تساؤلا وكأنه يقول : اريد ان افهم ما يحيط بي من اشياء ، اي هذه الاشياء حقيقة وايها خيال ؟ لا تدفعوني بقصصكم العجيبة الى الحيرة ، فقد بدأت افهم ان البساط لا يطير نعم لا يطير لاني رأيته ثابتا وما زال ثابتا . وبدأت افهم ان ما أكله الذئب من اولاد العنز لا يمكن ان يعود الى الحياة مرة اخرى. اريد ان اعرف بيئتي على حقيقتها ، واعرف بلادي ، واتودد الى اصدقائي ممن يعيشون في بلدتي .

انني لأحس كثيراً من الغموض فيما حولي ، وهذا الغموض يقلق نفسي ، فأحس التشاؤم في بعض ايامي ، فروحوا عني بألوان من الفكاهة تسري عن نفسي بعض ما ينتابها من حيرة وكآبة .

انها انتقالة جديدة حقا تحتاج من ادبائنا الى حكمة في اختيار القصص وانواع الابطال فليكونوا في هذه الفترة من اهل الحرف : كالصناع والزراع والتجار ومن اليهم ممن يؤدون خدمات لمواطنهم ، وليكونوا كذلك من الغرباء عن اهليهم واوطانهم حين يحسون بالشوق والعودة ، وبذلك نبدا الخطوة الاولى في طريق الاحساس بالوطنية ، على ان يكون خيالنا محدوداً بل تغلب عليه الواقعية الا في القليل من الخيال الذي يجذب الانتباه ويحمل عناصر التشويق .

وليكن الابطال الذين تدور حولهم قطع الشعر ، ومقطوعات الاناشيد في هذا المحيط ايضاً الام والاخوة والجدة والممرضة ، والمعلم وغيرهم ، ولو استطاع الناظم ان يؤدي المعاني التي يريدها في اسلوب قصصي لكان ذلك اوقع في نفس الطفل وادعى الى تأثره . هذا الشاعر الهراوي يتحدث عن العطف الاخوي في ابيات يقول فيها :

كانت ليحيى هرة بيضاء ... وسيمة في شكلها حسناء
وكان لا يأكل الا معها ... ولم يكن يشبع او يشبعها
فمرة قد جلسا للأكل ... واخته فاطمة في معزل
فأجلس الهرة فوق المنضدة ... يطعمها من لحمة مقددة
فأقبلت فاطمة نحو الهرة ... تطعمها مثل اخيها مره
فظنت الهرة انها اتت ... تريد ان تحرمها ما طعمت
فرفعت لها يدا بشرها ... وخدشت فاطمة بظفرها
لما راى يحيى دماء اخته ... صب على الهرة سوط مقته
القي بها من فوره بعيدا ... وقال قولا طيباً سديداً
الأخت ياهرة فوق الهرة ... ومن يساوى صدفاً بدرة

وانا وان كنت لا ارضى بقوله « صب على الهرة سوط مقته » من ناحيتين : ناحية ارتفاع الاسلوب الذي لا يناسب السياق ، وناحية معاملة الحيوان الذي لا يدرك الا انى واجد في القطعة نهجاً شائقاً يغري بالقراءة ، ووصفا جميلا لتعاطف الاخوة على انه قد يهون النقد حينما نعلم انه اراد ان يبين مكانة الاخت وانها تفضل كل شيء محبب اليه ، حتى ولو كان هرته العزيزة : « ومن يساوي صدفا بدرة » ويجب ان نعلم ان الفكاهة ضرورة لابد منها ، لانها تشيع الابتهاج في نفس الطفل وتجعله يقبل على الحياة ، بل ترغبه في القراءة منذ الصغر . على ان تكون الفكاهة هينة لا يحتاج ادراكها الى عمق في التفكير .

ويكون ابطالها ممن تجري على ايديهم اعمال تلفت النظر لما فيها من غرابة ، فقد نستطيع ان نؤلف قصصاً صغيرة تدور حول طفل ينسى كثيراً فيلبس حذاءه معكوسا ، او يلبس حلة اخيه الصغير فيبدو منظره مضحكاً ، او نذكر له قصصاً لأناس يقعون في مشكلات ، لأنهم لم يفكروا تفكيراً سديداً : كقصة الرجل الذي وجد لوحة معلقة على عمود فلم يستطع قراءتها لضعف بصره ، فعمد ليعلم ما بها ، فلما وصل اليها وقرأها وجد بها هذه العبارة « احترس من الطلاء » . ان هذه القصة وامثالها فضلا عما بها من المرح تأخذ بيد الطفل الى معرفة ما لم يعرف من شئون الحياة . فهي تسلية لنفسه وغذاء لعقله في وقت معا .

ولما كان الخيال الذي ننهى عنه انما هو الخيال الجامح الذي قد يوقع الطفل في حيرة كالخرافات التي تؤكد مزاعم العوام ، لما كان ذلك فاننا نستطيع ان نقدم له ما ينطق الطير والحيوان والحشرات ، لان الطفل لا يحتاج الى عناء كبير في ادراكه على حقيقته ولتكن غايتنا من ذلك توضيح صفاتها ، والافصاح عن عجائبها ، او غرس العادات الصالحة عن طريق بطولاتها وما تقوم به من اعمال ، او الاتيان بطائفة من الفكاهات في حكاياتها سواء أكانت شعراً أم نثرا على ان تكون في مستواه العقلي كما ذكرنا ، من ذلك مثلا قول شوقي على لسان الحمار بعد ان اوقع صاحبه وذهب يستفسر من الثعلب عن فعلته :

في موكب الامس لما ... سرنا وسار الكبار
طرحت مولاي ارضاً ... فهل بذلك عار ؟
وهل أتيت عظيماً ... فقال : لا يا حمار !

أما الفترة الباقية من الثانية عشرة فمن حقنا ان نعود الى الخيال ولكن في الحدود التي لا تجلب له المخاوف والمفزعات ، وفي الآفاق التي لا تحمله على الاستهزاء والسخرية . نعود الى

مثل هذا الخيال آمنين ، لانه أصاب من المعرفة ما يمكنه من التفرقة بين الواقع والخيال . على ان اهم ما نعني به في هـذه الفترة انما هي بطولات الوفاء للوطن والتضحية في سبيله ومن الامثلة التي اجتمع فيها الخيال بالمعاني السامية في محبة الوطن قطعة شوقي المشهورة وفيها يقول :

عصفوتان بالحجاز حلتا على فنن
في خامل من الرياض لا ند ولا حسن
بيناهما تنتجيان سحرا على الغصن
مر على أيكهما ريح سرى من اليمن

فبطولة القصة هنا تقوم بها عصفورتان رضيتا بجفاف المكان وقلة الغذاء ، تقديسا للوطن ، وايماناً بمكانته العزيزة في النفوس ثم ردت احداهما على الريح في جواب المؤمن بوطنه المتفاني في محبته .

يا ريح انت ابن السبيل ما عرفت ما السكن
هب جنة الخلد اليمن لا شيء يعدل الوطن

ولست اوافق الشاعر هنا على التمثيل باليمن والحجاز فهما وطن واحد ويجب ان ننبه الاطفال الى هذا المعنى ونؤكده في أذهانهم وقلوبهم منذ الصغر .

وقد يكون من الواجب في هذه المرحلة ان نذكر الطفل بألوان من التضحيات يقوم بها الابطال في سبيل بلادهم : الجندي في ميدان القتال ، والاسير بين أيدي الاعداء ، والفدائي يضحي بنفسه في سبيل المبادىء ، كل ذلك في أسلوب قصصي يلائم الاطفال ، ويتمشى مع ادراكهم . واننا لنذكر على سبيل المثال قول أحدهم يذكر قصة اسير :

وقف الاسير مقيدا بين الاسنة والعدا
فاذا تلفت حوله وجد السلاح مسددا
قالوا له : ماذا وراءك من معدات الردى
ماذا أعد أميركم للحادثات وجندا

وتسير القصة ذاكرة تهديدهم له بالقتل ان لم يبح بالاسرار ، ومفصحة عن اغرائه بشتى المغريات ان هو باح بها وخان قومه . ولكنه لم يفعل :

فتبسم المأسور من هذا الكلام ورددا
عاشت بلادي حرة ولها دمي منى الفدى
افنى ويبقى في علا وطني الحبيب مخلدا

ونعود فنذكر بما سبق ان قلناه من ان الطفل في هـذه الفـترة وان عـاد الى الخيـال مرة اخرى ، الا انه لا يميـل الى الخيـال الجـامح وانما يميـل الى الخيـال المحـدود : لا يعجبه ان يستمع الى قصة الحصان يطير بصاحبه في الجو ، ولا يعجب بالخرافات الشاذة حينما نذكر له مثلا في قصة من القصص ان عملاقاً مفرط الضخامة كان الناس يسيرون على حافة قبعته فلا تقع ولا يحس هو بهم . نعم قد يقرأ قصة الاميرة المسحورة ، وابن عروس البحر ، واصبح الملك وغيرها ، ولكنه يستهين بها متطلعاً الى خيال من نوع اخر . وقد يجد في هذه الخرافات من الغرائب ما يزيد من مخاوفه او يدفعه الى دنيا الاوهام والاباطيل . ولست ادري لم يغرق المؤلفون في هذه الخرافات ، فيأتوا في قصصهم بالبخور ينطلق منه المارد ويتخيروا الابطال من الجن والشياطين . وفي حقائق العلوم في عهدنا الحاضر مجال لخصوبة الخيال ــ ان شاؤا ــ هاهي ذي الابتكارات في الاقمار الصناعية ، والذرة ، والصواريخ ومعجزات الطب وغيرها ، كفيلة بأن تفسح أمام الخيال الابتكاري . فليتخير الادباء ابطالا مغامرين يسافرون الى القمر ، وليتخيلوا معجزات لا تقع في الحسبان توجدها الذرة ، وليذكروا في قصصهم ابطالا يطيرون في الجو بآلات صغيره ويأتون بأعمال عجيبة .

وليتخيلوا من معجزات الطب ما يشاؤون ، فـان هذه خير الف مرة من المـارد الذي يخرج من البخور ، لان فيها تنبيهاً للاذهان ، وبناء للخيال ، وتخطيطاً للانسانية في مستقبل الزمـان ، ومن الانصاف ان اقول : انني وقعت على بعض القصص التي تستمد خيالها من هـذه النواحي ، ولكني اذكر انها وقعت في كثير من الاخطاء ، ففي احـداها يقول عمار لبشار بعد ان وصلا الى القمر في صاروخ : انظر الى الارض يابشار وهي تدور كأنها قمر كبير . انظر هاهو البحر المتوسط وهاهي سوريا ومصر ، وهاهي آسيا وافريقيا ، وكان في الصورة يشير الى الارض وهو ينظر اليها بعينه المجردة فكيف يستبين مصر وكيف يستبين سوريا . ولكني مع ذلك كله اقول ان هذه القصة واشباهها - مهما يكن بها من اخطاء ــ خير من قصص السحرة والشياطين تلك القصص التي لقيت رواجاً كبيراً في عهد التأخر والجمود .

وفي هذه الفترة من الحياة يبدأ التطلع الى القوة ، يراهـا الطفل في قوة الجسد ، وقوة العقل وسعة الحيلة ، وهو يود ان يصل اليها جميعاً تلبية لغريزة السيطرة التي قويت في نفسه ودفعته الى طلب الزعامة : ولذلك يرغب في تكوين جماعة يقودها ان استطاع ، ليحارب جماعة اخرى في حي من احياء بلدته : انها

النفس تؤكد ذاتها وتبني شخصيتها، وتحاول ان تفرض سلطانها بعد ان انست الى البيئة وعرفت اسرارها، وقد يجرفه هذا الاتجاه في غفلة من الآباء والمربين الى الفرار من كل قيد، وتقليد الاقوياء من القتلة واللصوص والسفاكين ونحن بما اوتينا من قوة لانستطيع ان نئد الغرائز ولكننا نملك توجيهها بما نتذرع به من اساليب وخير مانتسلح به في هذه الحال الادب الموجه. نستغل مثله وصوره واعمال ابطاله. ليلتمس الطفل القدوة فيما هو واحد فيه من صفات، ويعلم ان القوة خير حين توجه لصالح الوطن، والدفاع عن الكرامة، وحين يراد بها مواجهة العتاة، ومؤازرة الضعفاء، والوصول الى الحقوق. اما حب الغلبة والاعتداء وقهر الناس واستلاب الاموال فانحراف لايليق بالنفس العزيزة الكريمة.

نسوق هذا كله مساق القصص، او نقدمه في حوار المسرحيات، او نصوره في شعر سهل تتقبله نفوس الناشئين لان هذه الطرائق افعل بالنفوس، وادعى الى الاقتداء بالابطال الشرفاء فينشأ الجيل بعد الجيل على عزة النفس واباء الضيم، وان الوطن لينتظر من ابنائه جرأة في موضعها وشهامة في الحفاظ على المقدسات، وحمية تردع الاعداء، ومما يدعو الى الانتباه في هذه الفترة من الحياة ان الطفل يغرم بالقوة حقاً، ولكنه يحس في جسده من الضآلة مايحول بينه وبين بلوغ الغاية التي يريد، وقد تتعقد نفسه بهذا الشعور، ومن ثم كان من واجبنا أن نمهد امامه الطريق الى الايمان بنفسه بناحيتين: اما اولاهما فبطولة صبي يتغلب على طاغية واما ثانيهما فبطولة الحيلة ينتصر بها الضعيف على القوي، ومن امثلة البطولة الاولى قول الشاعر في وصف مدعي الشجاعة:

وكان يلقي الرعب في القلوب	بكثرة السلاح في الجيوب
وكلما مرهنـــاك وهنـــا	يصيح بالناس انا انا انا
نمى حـــديثه الى صبي	صغير جسم بطل قوي
لا يعرف الناس له الفتوة	وليس ممن يدعون القوة
فقال للقوم سأدريكم به	فتعلمون صدقه من كذبه
وسار نحو الهمشري في عجل	والناس مما يكون في وجل
ومد نحوه يمينا قاسية	بضربة كادت تكون القاضية
فلم يحرك ساكنا ولا ارتبك	ولا انتهى من زعمه ولاترك
بل قال للغالب قولا لينا	الآن صرنا اثنين: انت وانا

واما الثانية فنسلك اليها طريق الرمز على لسان الحيوان، على ان يكون البطل حيوانا ضعيفاً يتغلب على حيوان قوي: يخدع الارنب الاسد فيوقعه في البئر، وتفتك البعوضة بالفيل ويتغلب الثعلب على الاسد بحيله، او يفر من الفلاحين بتماوته وهكذا.. فالطفل لا يغريه فتك الاسد بالارانب، ولايسر من قتل الفيل للبعوضة لانه يضع نفسه موضع الصغير. فيتوهم حين يقرأ انه يستطيع ان ينازل الاقوياء المعتدين بما يتخيل من سعة الحيلة وقوة الذكاء، ومن اجل هذا وجدنا الآداب جميعاً ومن بينها الادب العربي تمتلىء بقصص كثيرة من هذا اللون تلبية لغرائز الطفل وتحبيباً له في القراءة والاطلاع، وترويحاً عن نفسه بما فيها من المفارقات والفكاهات.

«ثالثاً» مرحلة المراهقة:

والآن ننتقل الى اخطر مرحلة من مراحل الطفولة، انها مرحلة المراهقة بين الثانية عشرة الى الرابعة عشرة، وقد تمتد بعد ذلك سنة اخرى او سنتين، وهذه الفترة من حياة الطفل هي فترة القلق، فالغريزة الجنسية ثائرة، والقيود الكثيرة من حوله تقف في سبيله: سلطة الآباء، وتقاليد المجتمع وتعاليم الدين وسلطان القوانين، ولذلك نراه مضطربا اشد الاضطراب قلقا اشد القلق، والقيادة التي تتولاه في هذه الحالة هي التي تحدد مصيره، وترسم مستقبله. وربما كان ادب البطولة في هذه الفترة انجع علاج نتذرع به اذا شئنا له الصلاح والسلامة.

قد يتمرد بسبب القلق على كل سلطة، وقد يهرب من آبائه، وقد يغضب فيسرف في الغضب. مع كل هذا يحمل بين جنبيه نفسا طيبة قابلة للتقويم: فهذا القلق نفسه يحفزه الى متنفس في عمل الابطال، فيخلص لهم اشد الاخلاص حتى لقد سمى علماء النفس هذه الفترة «فترة عبادة البطل» وذلك لانه يتخير شخصية يعجب بها ويراها مثالا للرجولة الكاملة، ولا يزال اكباره لها يشتد ويشتد، حتى يترسم خطاها في امانة، وينسج على منوالها في دقة تامة، ومن ثم كانت هذه الفترة مع خطورتها البالغة، احسن الفترات لتكوين المثل العليا، والعادات الاجتماعية الصالحة عن طريق دراسة الابطال.

ولا اقصد بهذه الدراسة اتباع المنهج العلمي او تلقين المعرفة بأسلوب جاف، وانما اريد استغلال الادب قصصه ومسرحياته وشعره. وفي تاريخنا العربي قديمه وحديثه مادة صالحة للاستغلال الادبي: فيه المجاهدون الابطال، والفدائيون، والشهداء والسياسيون، واهل الرأي والحكمة، وفيه الانبياء والصالحون والاطهار المقربون وغيرهم ممن صابروا في سبيل المبادىء السامية وضحوا في سبيل الوطن والانسانية. فأفاد من

جهودهم العرب بل الناس جميعاً . نعم في تاريخنا القديم والحديث ما يصلح غذاء ادبياً سليما وأداة صالحة للتقويم ، ولا انكر ان جماعة من الادباء والشعراء قد عمدوا الى هـذا التراث الكريم فاقتبسوا منه قصصا للبطولات . فجـاء بعضها مناسباً ومال بعضها الآخر الى السرد التاريخي مغفلا التشويق فانصـرف الاطفال عن قراءته . ومن المسرحيات الشعرية الشائقـة مسرحية تدور احـداثها في بور سعيد سماها مؤلفها العدو الجبان ، وابطالها من الغلمان الاذكيـاء الذين يعتمدون على الحيلة للايقاع بالاعداء ومنها :

والآن هيا يارفاقي   كل فرد في اتجاه

من رأى منكم عدوا   فلينفـذ   مايراه

وبعد ان صرع احد الاعداء يقول :

صرعتك مصر بكف شبل من بني الشعب عظيم

شعب العروبة والرجولة والبطولة من قـديم

واعتقد ان استغلال التاريخ لايزال محـدوداً ، ولذلك ارى ان نعمد الى مادة التاريـخ التي بين ايدينا فنقسمها على هذا النحو :

أ — علماء او ابطال نبغوا في حداثة السن كالمتنبي والشافعي ومصطفى كامل وغيرهم .

ب ـ ابطال تفوقوا في قتال الاعداء دفاعا عن الوطن او حماية لمبدأ من المبادىء كخالد بن الوليد وصلاح الدين وغيرهما

ج ـ ابطال ضحوا في سبيل مبادئهم كجميلة بوحريد

د ـ ابطال الاصلاح كجمال الافغاني ، وقاسم امين .

هـ رجال الزهد والورع كعمر بن عبد العزيز وابو مروان القصصي الشعبي .

ز ـ اخبار الرحالة والكاشفين .

نعمد الى هذه الانواع من البطولات ونجعلها اساساً لقصص نضيف اليها من الخيال مانراه بحيث لاتخرج من جوهرها عن المفهوم التاريخي ، وليس يضيرها ذلك مادامت تقدم الى الطفل على انها لون من الوان القصص لا على انها تاريخ . اما القصص الشعبي فمن واجبنا ان ننتقى منه مانراه صالحا ثم نهذبه تهذيباً كاملا مادمنا نرمي من ورائه الى التربية والتقويم ، وليس من الحكمة في شيء ان نقف في اخراجنا له عند حد الاسلوب كما يفعل بعض المهذبين .

ولا ازيد باتجاهنا الى التاريخ ان نهمل جانب القصص على لسان الحيوان والطير فما زال الطفل في مراهقته تواقاً الى صورة على ان نخطو به خطوة اوسع مدى واعمق تفكيراً ، ونستغله فيما نريد من الوان البطولات .

قد نقدم في المقطوعة الواحدة شخصيتين او ثلاثا ويقوم كل منهما بعمل من الاعمال ثم نبين في خلال الابيات او ختامها ايها اعلى قدراً واكثر نفعاً ، على ان يكون كل من العملين بطوليا او انسانيا يفاصل بينهما . ولشوقي قطعة شعرية بعنوان « امة الارانب والفيل » رأيت فيها وفاء بهذه الاتجاهات ، بل ان مافيها من اشارات بطولية خليقة بأن تكون دروساً متعددة في الاخلاق ، ومرانـة على مواجهة المشكلات بحزم وتفكير وتعاون مع المواطنين :

يحكون ان امة الارانب   قد أخذت من الثرى بجانب

وابتهجت بالوطن الكريم   وموئل العيال والحريم

فاختاره الفيل له طريقا   ممزقا   أصحابنا تمزيقا

وكان فيهم أرنب لبيب   أذهب جل صوفه التجريب

نادي بهم يا معشر الأرانب   من عالم وشاعر وكاتب

اتحدوا ضد العدو الجافي   فالاتحاد قوة الضعاف

وتمضي القصة مبينة أن الارانب اختارت بعد هذه الدعوة ثلاثة للتشاور وتدبير حيلة للايقاع بالفيل ، ورأى كل منها رأيا وكان رأي الاول :

أن نترك الارض لذي الخرطوم

كي نستريح من أذى الغشوم

فلم تقبل الجماعة الرأي لانه ترك للوطن ، والتنحى عنه كفقدان الحياة .

ورأى الثاني ان يستعان بالثعلب في تدبير حيلة للفتك به على ان يأخذ مقابل حيلته ارنبين فلم تقبل الجماعة :

فقيل لا ياصاحب السمو   من يدفع العدو بالعدو

ورأى الثالث حفر هوة للفيل وقد نجحت حيلته ، فأرادت الجماعة ان تؤمره عليها فلم يقبل وقال :

فصاحب الصوت القوي الغالب

من قد دعا يا معشر الارانب

ففي القصة دعوة الى الاتحاد ، وثورة على الظلم ، واعتماد على العثور ، وتفان في محبه الوطن ، وعدم الاعتماد على الاعداء في صد اعداء آخرين ، وايثار واظهار لفضل صاحب الدعوة على من عاون في نجاحها . وأصبحت القصة بذلك كله خليقة بأن تقدم للاطفال في فترة المراهقة .

الاسلوب :

اذا كان اختيار الموضوع وما يشمل عليه من افكار من الامور المهمة التي يجب ان يتوخاه المؤلف مناسبة للمرحلة التي يؤلف لها _ اذا كان ذلك مهما ، فأن اختيار الاسلوب ملائماً كذلك من الأهمية بمكان فقد تضيع الفائدة لارتفاع في الاسلوب ، وقد يهون الابتذال من قدر القصة في نظر المتعلم من الاطفال ، ومن اجل هذا نرى ان اختيار الموضوع يحدد في كثير من الاحيان مستوى الاسلوب الذي يجب ان يكتب به . وهذا ما يعني به المؤلف اذا كان ممن يهتفون بالدراسات النفسية للأطفال . ولكن هل ساوت القصص التي بين ايدينا على هذا الغرار ؟ وهل راعى المؤلفون في اساليبهم عند الكتابة المؤازنة بين مستوى الموضوع ومستوى الاسلوب؟ اننا لانجد الا القليل النادر من هذه القصص : اما الكثرة الغامرة من الانتاج : فموضوع لا يلتقي بأسلوب ، واسلوب لا يتغير مهما يكثر الانتاج ، وارتفاع يند عن مستوى الاطفال ، وتراكب في الخيال .

وقد هبط الاسلوب الشعري في بعض المسرحيات الى حد الابتذال والخطأ في الوزن ومن ذلك :

ولسوف نطوي راية الكفر فقد

ضربت عليهم ذله وخضوع

★ ★

قيل النبي نجا وها هو قربك

فمضت تطيل الحمد تشكر ربها

كالبرق يلمع كان سيفك نازلا   كالجرح يقطر صاعداً بالروح

★ ★

وفي هذه الابيات كما نرى اخطاء في الوزن وابتذال في الاسلوب وضعف في المعاني .

وبعد فانا نريد من مؤلفي القصص ان يتخيروا الموضوع ملائماً لاحدى مراحل الطفولة ، فاذا تأكدوا من ذلك تخيروا الاسلوب المناسب لهذه المرحلة ، وبذلك تأتي اساليبهم متفاوتة بتفاوت الموضوعات .

القصص المترجمة

قد يستطيع الطفل في مرحلة المراهقة ان يقرا الوانا من القصص المترجمة تتضمن وصفاً لبيئات اجنبية ، وتحمل اسماء لم يسمع بها في بيئته وتشرح عادات وتقاليد تختلف عن عاداته وتقاليده . وهو دون هذه السن احوج مايكون الى ادراك بيئته اولا والبيئات العربية ثانيا ، ومن الخطأ ان نسبق به الزمن فنقدم اليه مالا يستطيع ادراكه او يراه ابعد من آفاته

فاذا شئنا الترجمة لمن هم دون المراهقة كان من واجبنا ان الاسماء ونغير ملامح البيئات ، ونلون العادات والتقاليد بما يجانس بيئاتهم .

وقد اطلعت على مجموعة من القصص المترجمة عن الايطالية فوجدت في صورها جمالا ، وفي اخراجها روعة ولكنها تضمنت الوانا من العادات التي لاتلائم ابناءنا واشتملت على كثير من الخرافات والاحداث المفزعة التي نأمل ان ننزه افكار الصغار منها في العهد الجديد .

وقد عمد بعض الادباء الى تلخيص القصص عن الآداب الاجنبية ، وراعوا في اساليبهم السهولة معتقدين انها بقصرها وسهولة اسلوبها اصبحت ملائمة للاطفال ، ونسوا ان الموضوع وما يشتمل عليه من احداث فوق المستوى وانها بهذا لاتصلح اداة للتوجيه وربما نفرته من القراءة ، او اساءت الى نفسه واخلاقه .

وشبيه بهذا عمل بعض المترجمين ممن تخيروا الموضوع ملائماً لبعض مراحل الطفولة ولكنهم ملئوا اساليبهم بألوان شتى من صور البيان وغريب الالفاظ ، يقول احدهم في قصة للاطفال :

« ثم انثنت مزهوة الفرحة الموسنانة التي يغتريها محياها وتلألأت ثناياها . غدت بسمات تتوثب على مر ملامحها وتطفر ، آنا راقصة وآنا معابثة ، على خديها فوق ثغرها الضاحي في لمح عينيها ، اذ يبرق بين اهدابها المشرعات كالسهام » وبمثل هذا الاسلوب يجلي المترجم احداث القصة لن انها للتلميذ بل التلميذ الصغير كما يبدو من صغر القصة « وصورها وطريقة طبعها وعرضها .

كلمة ختامية :

ونحن في ختام هذه الكلمة نتوجه الى المؤلفين من الشعراء والكتاب والمترجمين والمهذبين لقصصنا الشعبي آملين ان يهتموا بالنواحي الآتية « حتى يكون لاعمالهم آثارها الجدية في تنشئة الجيل الجديد :

١) عليهم ان يتخيرو لكل مرحلة من مراحل الطفولة ما يناسبها من الموضوعات ، وان يتوخوا في بيانهم الاسلوب الملائم لكل مرحلة ، على ان تكون الدراسة النفسية الاساس فيما يؤلفون .

٢) وعليهم _ اذا شاءوا التهذيب من ادبنا الشعبي

البقية على الصفحة « ٦٣ »

في رحاب (القبس الحي)

بقلم عبد الله الشيتي

سكرتير تحرير الزميلة الايام

القبس الحي ؟

ارأيت الى هذا العنوان تنبعث منه ممة الحياة منهلاً ثراً للعطاش يفيض بالرواء لرواد الحياة .. وللاحياء منهم على وجه الخصوص ؟

هذه الحياة بما تحتويه من خصائص وفعاليات ، وماتشتمل عليه من وفق وعطاء ومشاعر تزرع حبات الخير والبركة في النفوس .. هل طاب لك يوماً ان تروح عن نفسك في رحابها ساعة من زمن يمضي .. فالقلوب اذا كلت عميت ؟.. وهل استشعرت حاجة الى التطواف في مسالك شعر ـ وشعور ، ودروب من نضرة يحتاطها الطل والظل كالسوار ؟ انك لو فعلت لالفيت حقاً ان الحياة غير هذي الساعات الرتيبة المملة . التي تنصرم من عمرنا ولوجدت فعلاً انه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان !

وخرجت من تطوافي ، والسلة في يدي معبأة من عناقيد الكروم .. وثمار الروح تؤكلها اشجار الحياة رطباً جنياً !.. ولا اكتفي بلون ولالونين .. بل من كل واد عصا .. ومن كل حديقة زنبقة او زهرة ، ومن كل ارض قبضة نبات يذكي جذوات الخصب والدفء المنساب عبر العروق والافئدة كالخدر .. كالنشوى التي لاتنتهي الا لتبدأ .. وتبدأ ولاتنتهي !..

ذلكم هو قبس سعد صائب .. يشع في قلبي في زحمة العتمة والظلمة ، ويبدد كثيراً من اسوداد الحزن في ذاتي ، ويهيء لي ولك وللحيارى التائهين السائرين بلا هدف ظلالاً وارفة نفيء اليها من حر ومن قر .. ونجتر معها اطيب ذكريات الماضي والحاضر والمستقبل الذي نستشف خباياه ، ونكتنه اسراره وخفاياه قبل ان يدركه مخاض الولادة !

وانا من طبعي .. اوثر التحليق ، واوثر هضم الحرف المبدع الخلاق تباركت قـدرته يفعل في فعل السحر في النفوس !.. فلا تلوموني اذا انا امعنت في هواي .. واسترسلت في نشوتي مع سعد .. وقبس سعد .. واود لو اقول قبس الاقباس ويدي على ضميري قبل ان تكون فوق قلبي !

يقع الكتاب في ١٨٥ صفحة من الحجم المتوسط الانيق بحلة قشيبة شأنه شأن اخوته الكتب الثانية التي وجدت طريقها الممهدة الى النفاد ، ويضم بين دفتيه نبذات عن سير واشعار سبعة فحول من شعراء الغرب المعاصرين والمجددين ، كما يحمل في خافقيه مثل هذا لخمسة آخرين .. تقرؤهم مجتمعين الاحد عشر فحلاً و « فحلة » فتلذ لك القراءة .. مثلما يلذ لك استقطاب اصداء الكلمة كأنها موسيقا !

ان سعداً يختصر عليك مسافة البحث والتدقيق ، ويوفر عليك كثيراً من الجهد والعرق واستنزاف العيون وبنات الافكار .. ويكفيك مؤونة المقارنة والمفاضلة بين شاعر وشاعر فيعطيك «الوجبة» التي تحتاجها بعفوية صادقة ،وتعبير اصدق.. ويفجؤك بمثل ما فاجأ غاندي به العالم « اريد ان تهب على بيتي ثقافات كل الامم بكل ما امكن من حرية ولكني انكر على اي منها ان تقتلعني من اقدامي » ! وعسير على سعد ان يقتلع اقدامه من وسط الساح ومن معركة النتاج الخير المثمر كرمى « عين » الحق والحقيقة ، وسعياً وراء مثل الجمال .. والكمال .. والحرية .

وليس اول على قيمة هذا جميعاً من قراءتك مارسلين فالمور في سره وحبه ، وبوشكين في ذكراه ، وجوكوفسكي في احساسه ، وسلوتشفسكي في رجائه ، و « دي موسيه » كاتب الالم .. وجير الذي في صداقته واستيفان زفايغ في انتحاره .. يقابلهم في الشرق من حيث الموضوعية والعيش للفن والكون . وتحقيق الافضل : طاغور في فلسفة والموره لي في تأملاته .. وفؤاد ابو زيد في عذرياته وجمانة الاحدب في تسع اقصودات مشروحة الصدر والفؤاد ، متكاملة النهدين كأية عروس حسناء طهور تزفها الطبيعة الى ضوء القمر لتغتسل في لجينه من وعثاء السفر وتزيل عنها تختر الشوائب والاوضار وأدران المارة ! اما كوليت الخوري فنقرؤها في قصيدتين اثنتين « لو » و « سكر » .

هذا غيض من فيض مما ترجمه سعـد صائب لي ولك وللمتعبين الحيارى التائهين وراء الخيال .. والحقيقة عارية مكشوفة كدمعة تأتلق في عيونهم الوسنى المحزونة وتبتهل على مقلهم المقرحة الجريحة !..

لقد اسهم سعد صائب في « اشباع » المكتبة العربية بالدمم وزرقها بحقن « الفيتامين » تماماً مثلما يفعل النطاسي ازاء المرض .. والمرض ..!..

وهو في كل الاحوال شبع لايفتأ الجوع يعقبه منا شداً (سعد) مزيداً من الزاد .. وفائضاً من الدسم .. شأنه شأن كل خير سخي جواد .. اخذ الله بيده صعداً الى القمة وحقق في عهدته الآمال !

الصديد .. وأرض الديدان

احاول ان اغمض عيني . لعل السبات يقتلعني من حاضري العفن . لكنني لا أستطيع . تمر حوادث النهار في مخيلتي ، كأنها اشباح ذات اصوات مفزعة . اتعب عيني . اجعل البؤبؤين يدوران في محجريها . احرك رأسي يمنة ويسرة . اعد من الواحد حتى الالف واكثر . واحيانا ابدأ العد من البداية . اقوم بحركات كثيرة .. انقلب في فراشي كأنني محموم . وانقلب . يتعب جنبي الايسر . فأنقلب الى جنبي الايمن . انقل رأسي فوق الوسادة كلما شعرت بحرارة المكان الذي القيت رأسي عليه لابد ان انام . ولابد ان تجتاحني كل ليلة الاحلام المرعبة المفزعة حتى الصباح .. وعندما يطل الصباح اولد من جديد .

المأساة تتكرر كل يوم . اصبحت هذه المأساة آلة رهيبة تسحق احساسي بشكل دائم .

ستظل يدا هذا العالم تضيق الخناق على عنقي . كعملاق غاضب يكرهني . لابد ان اختنق به كحشرة تدوسها قدم مخلوق وحش . ثم ينتهي حلم طويل قضيته خلف البحث عن ذاتي المفقود في عالم مغلق لم يكن فيه الا الشقاء يتدفق منه شلال منهمر في عذاب متواصل ، واستقر كالصديد في قعر ارض الديدان ..

ياسين رفاعية

البطولة في أدب الاطفال - بقية

الأطفال - ان ينتقوا منه الوانا يجيلون فيها يد الاصلاح ، حتى تأتي خالية من الشوائب ، مجدية في تنمية الخيال ، مهـذبة للاخلاق بما تعرض من المثل الصالحة للابطال .

٣) ومن واجب المؤلفـين ان يهيئوا اذهان الناشئين الوثبات العلمية في العالم ، وان يبشروا بوثبات ووثبات ، وان يجعلوا من العلوم والاختراعات مادة لالوان من الخيال ونماذج لطائفة من البطولات ، ولعلهم يجدون في هذا غناء عن بطولات الجن والشياطين .

٤) وعليهم ان يجعلوا تاريخنا الماضي والحاضر وما فيه من بطولات ، وسائل لتنشئة الابناء على العزة والكرامـة بما يجدون فيه من المثل العليا تلك المثل التي تضيء امامهم الطريق الى اشرف الغايات .

وبعد ، فاني ذاكر لمؤلفي ادب الاطفال جهدهم وفضلهم ومنوه في هـذا المؤتمر الكريم ، بفضل بعض المجلات على تربية الناشئين ، وارجو ان يتابـع الادباء نشاطهم وان يلتمسوا بآدابهم اقوم الطرق للاعداد والاصـلاح ، حتى يعدوا ابطال المستقبل بما يقدمون من النماذج الرائعة للبطولة فقد كان الادباء وما زالوا الرواد الذين يسيرون في مقدمة الركب الى اسمى الغايات ، وها هي ذي الامة العربية قد وضعت في ايديهم خير امانة ، وضعت في ايديهم اعز شيء لديهـا ، وضعت آمالها العزيزة ومستقبلها الذي تصبو اليه ، وضعت جيلها الصاعـد ، بل وضعت الابطال احفاداً لأبطال .

احمد ابو بكر ابراهيم

مفتش بمعارف الكويت

معتمد الشؤون الادارية

في مجلة الثقافة

طلال الزين